سيرة ذاتية

هاشم غرايبة

سنة واحدة تكفي

نوفل

هاشم غرايبة

سنة واحدة تكفي

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **صالح حمدوني**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-530-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-531-9

الفصل الأول
صعود الجلجلة

«ميغي منكي جمنا...»، هتف عسّاف بفرح ملوّحاً بيديه.

ميّزت وجهه بين الوجوه المحتشدة على الشبك الداخلي للسجن، فقد كنت أفكر فيه، وأعرف أنّه هناك.

كنّا ذهبنا ذات مرّة معاً إلى إربد لحضور فلم سنجام الهندي الذي استدرّ دموعنا لخمس ساعات متّصلة. وعدنا ليلاً مشياً على الأقدام نغنّي:

ميري منكي جمنا
ميري منكي جمنا
بور راسا بور سنجا
بوغا كي ناهي.

عندما رأيت المساجين يتجمهرون على شبك الساحة الداخلي، فيما قلم السجن يقوم بإجراءات تسجيلي نزيلاً موقوفاً على ذمّة المخابرات، تذكّرت السيرك الذي أقيمت خيمته على الملعب البلدي في إربد قبل عشر سنوات، وألهمني رسوماً زاهية نالت إعجاب معلّمي.

اختار عسّاف جحشاً سائباً على البيادر، وقال لاثغاً حرف الرّاء: تعال نغكبه، ونغوح السيغك.

ركبنا الجحش، وذهبنا.

تفرّجنا على السيرك، لكنّي لم أعد أذكر كيف توصّل عسّاف إلى صفقة مع متعهّد السيرك الذي اشترى الحمار طعاماً للنمور مقابل دخولنا الخيمة.

صافحني عسّاف مرحّباً: «الحمد الله ع السلامة ابن عمي».

* * *

حينما انتقلت إلى المدرسة الثانويّة في إربد، كنت أمرّ كلّ صباحٍ وأنا أصعد التلّ إلى مدرستي من أمام السجن الرمادي العتيق، الذي يطلّ على المدينة الخضراء متوعّداً، فأتخيّل كائنات متمرّدة خلف القضبان تزمجر محاولة أن تكسر أقفاصها، أو تقبع في الزوايا متظاهرة بالانصياع فيما تفكّر في الهرب.

الآن وقد دخلت القفص، تحضر ملهاة «النمور في اليوم العاشر» لزكريا تامر، وأتساءل بمرارة: هل أنا في اليوم الأول؟

لماذا تحمّلت يا هاشم ثلاثة شهور من العناء في زنازين المخابرات؟

أبتلع مرارة السؤال. أتوقّف عند الخطّ الفاصل بين الظلّ وبين سطوع الشمس. أستدير مستمتعاً بالشمس الصّاعدة من الشّرق. فالخروج من مبنى المخابرات إلى السجن يُعدّ فرجاً بعد التحقيق، والشّبْح، والفلقة، والإضاءة الساطعة على مدار الساعة.

كأنّما كنت أمارس نوعاً من التنويم الذاتي لحواسّي، فتحمّلت الفلقة، والفروجة، والضرب في ساحة التحقيق على أنحاء جسمي بعصيّ الخيزران. وبعد كلّ جولة يُلقى بي في الزنزانة مدمى وسعيداً، أوطّد العزم على أن أتجاوز بحزم ساعات الشّبح التي كانوا يربطون خلالها يديّ إلى قضبان الكوّة الكحليّة في أعلى الباب، وأبقى واقفاً زمناً رصاصيّاً لا أدري هل هو مستقطعٌ من الليل أو من النهار.

كنت أستعين بأحلام اليقظة لمواجهة الزمن. أتخيّل نفسي على كوكب آخر ألعب مع الأمير الصغير [1] . أستحلب رائحة الياسمين من ذاكرتي. أفكّر في لذّة التحدّي بصمت جريء منتظراً لحظة الفرح الخارقة حين يفكّون يديّ.

كان الضرب أهون من «الشّبح»، ربّما لأنّ الخيبة كانت ترتسم على وجه الخصم بوضوحٍ أمام ناظري، أمّا «الشّبح» فيضعني أمام جدار الزمن القاسي، إلى أن يفكّ قيدي حارسٌ لا يبدي شماتة، ولا يجرؤ على التعاطف.

وجاءت ساعة مختلفة عن كلّ الساعات التي واجهتها وسيلة تعذيب مبتكرة لم تخطر على بالي، لم نقرأها في الأدبيات الحزبيّة التي تتحدّث عن أساليب التحقيق، وتجارب الآخرين.

أخذوني إلى الساحة، كلبشوا يديّ إلى الخلف. ربطوا إبهام رجلي إلى تمرة عضوي بخيط نايلون قصير، ووقفوا يتفرّجون عليّ.

ساعتها لم أتذكّر شيئاً من حكاية الأمير الصغير، ولم أستطع التفكير بالياسمين. فقد داهمني ألمٌ لا يُطاق يشعّ من سلسلة الظهر، ويصعد إلى الرأس مثل كرة من لهب. حاولت استحضار أحلام اليقظة التي برعت فيها فلم أفلح.

في لحظةٍ بالغة القسوة شعرت كأنّ مسنّنات دماغي تتفكّك، وتدور عارضة صوراً وأفكاراً خارج السيطرة. فزعت فزعاً شديداً، ورفرفت راية الاستسلام غائمة في خاطري.

لحظة قرّرت التسليم، أغمي عليّ.

لمّا أفقت، تفقّدت عضوي فوجدته متورّماً. داعبته فتحرّك. اطمأنّيت وعاودت النوم. نمت نوماً عميقاً بلا أحلام.

بعدها توقّف التعذيب.

هل حقاً توقف؟

وجدت نفسي وحيداً في عتمة اللمبة المضاءة على مدار الساعة. أواجه الزمن بثقله وتوقفه وعناده.

الوحدة صحراء تزحف إلى لبّ الروح. في العزلة يطير الطائر ما بين المنكبين أربعين خريفاً ولا يصل.

صرت أتمنّى جولة من الجَلدِ تؤنس وحشتي، وتعيد إليّ ذاكرة الياسمين.

ليلة في العزلة كألفٍ ممّا تعدّون. ما أصعب معاشرة الزمن وجهاً لوجه بلا شريك. الزمن لا يُرى نهره في العتمة الساطعة، ولا تدرك ضفافه عبر التكرار الصارم لوجبات الطعام، ومواقيت الخروج إلى الحمّام.

بعد زمنٍ لا أدري مداه، انضمّ إليّ في الزنزانة زميلٌ من حزب التحرير الإسلامي اسمه حسن ذوابه آنس وحشتي. حسن خرّيج موسكو وتحريري 2 !

يا للسجال الممتع بين شيوعي مبتدئ، وتحريري خرّيج موسكو.

أينعت شجيرة الياسمين في روحي، واتّسعت الزنزانة أضعافاً مضاعفة بوجود شريك أقصّ عليه حكاية الأمير الصغير:

هبط الأمير الصغير من كوكب أسترواد. هذا الكوكب اكتشفه فلكيّ تركيّ، ولم يصدّقه أحد بسبب ملابسه الشرقيّة. هكذا هم الرجال. فأعاد الفلكيّ التركيّ تجربته وكان لابساً زيّاً غربيّاً فاقتنع الحضور. أقول لك ذلك بسبب البالغين. هؤلاء الكبار يحبّون الأرقام. وحين تحدّثهم عن الأمير الصغير لا يسألونك عن ضحكته. ما هي رنّة صوته. ما شكل زهرته. يسألونك ما رأي الكبار فيه؟ كم عمره؟ كم راتب أبيه؟ كم عدد إخوته؟ هكذا فقط يدّعون معرفته.

وإذا قلت لكبار السن رأيت منزلاً جميلاً له شرفة واسعة وحوله زهور الياسمين تعربش على النوافذ، فإنّهم لا يتخيّلون المنزل.

قل لهم رأيت منزلاً يساوي نصف مليون دينار سيصيحون: واو. ما أجمله!

الأساسيّ والمهمّ لا تراه عيون الكبار.

بوجود شريك في الزنزانة صار المكان قاعة للمناظرات، وملعباً للشطرنج، والقطار، والغولف أيضاً، وساحة للرهان على عدد النملات في الغرفة، ومكوّنات فطور الغد، وشكل الخفير المناوب. وصاروا يعاملوننا معاملة حسنة حتى ظننت أنّه سيُفرج عنّا قريباً.

قال حسن: «نسيونا».

ذات مساء جاء المحقق المناوب لتفقّد الزنازين.

قال للتحريري:

– انصحه لزميلك. شيوعي متيّس. بده نصير مثل روسيا. الناس هناك يحلموا ببنطلون جينز ما يطولوه. الستات هناك يشرمطن مشان علكة. همبرغر ما عندهم. هأ هأ هأ. وبالصين الشيوعية ما يعرفوا الخبز.

ردّ التحريري بنجابة:

– خذوا الجينز والعلكة والهمبرغر. والخبز كمان مقابل أن أنتمي إلى أمّة عظيمة، ودولة صاحبة قرار.

– هلا هلا، هاي متفقين علينا. فرقوهم.

فرّقونا، وعدت أغط إصبعي بمرق البندورة، وأرسم على الجدار خروفاً داخل صندوق!

في صباحٍ ما، سمحوا لي بالاغتسال، وألبسوني ملابسي العاديّة وسمحوا لي بمقابلة والدي.

* * *

في ساحة السجن، تزاحمت على لساني استفسارات كثيرة لم أطرحها على ابن عمّي عسّاف النصّاب الذي استقبلني بحفاوة، وحمل برشي وبطانيّاتي بمبادرة ودودة.

في زنازين المخابرات كنت أنام على فرشة إسفنج تُعدّ وثيرة بالقياس إلى هذا البرش المعفّر برائحة بودرة مبيد الحشرات «دي.دي.تي»، والذي يبدو مثل بساط صغير؛ لحمته من بطانيّات قديمة مسرّدة إلى قطع طويلة.

عسّاف يكبرني بسنتين، لكنّ السنتين تُعدّان فارقاً كبيراً لمن هم في مطلع العشرينيّات من أعمارهم، وتلزمان عسّاف بواجبات ابن عمّه الأصغر.

تجاوزنا حوض ماء يسمّونه هنا البركة، قطعنا خطّ سير ثلّة من الأفنديّة ببدلات وربطات عنق وأحذية لامعة، وهم يذرعون الساحة ذهاباً وإياباً بخطى سريعة، وجديّة عالية، غير آبهين بالظلّ وبالشمس.

علّق عسّاف: «أفنديّة الدار البيضا».

فوجئت أنّ هناك أفنديّة، ويقطنون داراً بيضاء. وخطر على بالي سؤال: لماذا يمشي المساجين بسرعة؟ إلى أين هم ذاهبون؟

زغردت امرأة في مكان ما. ضحك عسّاف: يمكن واحدة منهن أجاها إفراج. وأشار إلى الجهة الجنوبيّة الشرقيّة قائلاً بلا اكتراث: سجن النسوان.

لم أسأل. فقد تعلّمت في الزنزانة التعايش مع الغموض.

احتفظت بتعجّبي لأنّ المشهد الذي أمامي صار أكثر غرابة: رأيت ثلّة من الأولاد مشطّبي الوجوه، موشومي الأذرع، يغطسون في حوض ماء يتوسّط الساحة، ويتراشقون صاخبين. نهرهم عسّاف مرغرغاً حرف الراء: لا تطغطشونا بالميّ.

دخل عسّاف ليواناً عميقاً يفصل بين بابين عريضين، اتّجه يساراً إلى القاووش الجنوبي، فتبعته. شعرت كأنّي أدخل مغارة. المكان معتم تفوح منه رائحة عطنٍ عتيق، وأمونيا حادّة مختلطة برائحة بصل مقليّ.

القاووش ليس فيه ميزات تُذكر سوى باب حديد عريض، أمّا في الدّاخل فالأرضيّة كلّها مفروشة بالنزلاء. رأيت خيطاً من البراغيث يتسلّق إطاراً خشبيّاً خرّمه التسوّس لنافذة هي نصف نافذة، تتدلّى عليها عنكبوت ترثو نسيجها بصبر وأناة.

عسّاف يتردّد على السجن منذ نعومة أظفاره. فقد بدأ حياته المهنيّة وهو في الصّف السادس عندما كان يبيع سجائر فرط للطلاب، واتّضحت مواهبه يافعاً عندما استفاد من حقيقة الوزن النوعي للزيت. فباع طنّاً من زيت الزيتون لتاجر في عمّان، واكتشف التاجر أنّ الصّفائح مليئة بالماء الذي يطفو على وجهه بعض الزيت.

النصّاب أكل مال الطمّاع.

جعبة عسّاف في النصب والاحتيال لا تنضب، لكنّ خبرته كسجين ساندتني في التأقلم مع هذا المكان العجيب.

أفسح عسّاف مكاناً لابن عمّه الغرّ إلى جانبه بلا اعتراض واضح ممّن حوله. وكانت ثلّة من المساجين تتناجى في الركن الجنوبي الشرقي على مقربة من الفسحة الضيّقة التي فرش فيها برشي.

ازدحام فظّ، لا يوجد مكان لشيء لا على الأرض، ولا على الجدران. كلّ مساحة إصبع مستغلّة بطريقة ما.

السقف ينبعج إلى الأعلى. حجارة قباب السقف الصّغيرة مكشوفة تتدلّى من بين مفاصلها جدائل أسلاك كهربائيّة عشوائيّة، وحزم أمتعة، ودلاء بلاستيكيّة، وملابس، وأدوات طبخ مشحبرة.

في الجدار الغربي كوّة سوداء عالية، تسمّى شبّاكاً، وإلى الشرق شبّاكان استُعملا كخزائن لحاجيّات المساجين، وما بينهما كتابات مخطوطة بمسمار أو أداة حادّة على سواد الجدار.

خلقت للعذاب.

كلّه من النسوان.

السجن للرجال.
ماذا يقولون عن النساء السجينات؟ ماذا يكتبن على جدرانهنّ؟
بلعت ظلّ ابتسامة طفت على وجهي، حينما سألني ختيار ذو أنف ضخم:
– ظلّ حدا وراك؟
رددت باستغراب:
– ورائي؟ آه فيه ناس بالزنازين.
– ههه ظلّ حدا في إربد؟
– ناس؟
– ناس.
– طبعاً. كثير.
– رح يظلّوا هناك مدّة طويلة؟
– إيش مدّة طويلة؟
– هاهاها.
انفجر الجميع بالضحك.
سأل الرجل الذي يتوسّط الثلاثة الكبار في ركن المهجع:
– الأخ حرامي؟
ردّ عسّاف مرغرغاً حرف الراء:
– أبوك حغامي.
توجّه الرجل إليّ معرّفاً بنفسه:
– لا تزعل منّي. أنا أبو حديد شاويش المهجع، طبعاً عليّ أن أعرف كلّ شي. شو قضيّتك؟
ردّ عسّاف:
– سياسي.
– إيش سياسي؟
شعرت بكلمة سياسي كبيرة عليّ. فسكتّ، ولم أجب.
الرجل الثالث ظلّ مطرقاً وصامتاً. لكنّ وجهه بدا مألوفاً وودوداً.
تابع شاويش المهجع استجوابه:
– الأخ فدائي؟
ردّ عسّاف:
– حزبي.

قطع الاستجواب دخول شاويش حقيقي بلباسه الرسمي. شرطي صغير الرأس، سمين الجذع، رفيع الساقين، يتهادى مثل بطّة، بيده ورقة وينادي.

– هاشم الحوّاري.

وقفت.

– تعال، المدير يطلبك.

خرجت مع شاويش الشرطة.

– أسرع. يداك وراء ظهرك.

نفّذت.

اجتزنا الساحة، ووقفنا بين البوابتين.

كان خارج البوابة شرطي يقتاد سجيناً جديداً.

– مرحبا حيدر.

– أهلاً يونس.

ردّ الشاويش حيدر على الشرطي يونس.

– هات سيجارة.

– معي سيجارة لفّ.

– إن شالله هيشي. محشش.

– لصّ؟

– لأ. قاتل. وسجينك؟

– شيوعي.

– عوذا.

أشاح يونس جانباً، ومال بجذعه الطويل مثل صندوق العجب، وتفل في عبّه ثلاثاً.

ظهر شرطي ثالث ذو سحنة مصفرّة عند درج حجري ضيّق، وأشار للشاويش حيدر، وهزّ رأسه باتجاه الدرج، فصعدت أمام حيدر إلى غرفة مدير السجن.

تكرّر الطلب، وصارت زياراتي لمدير السجن منتظمة يومياً لأسبوعٍ قادم حتى صار الأمر لا يُطاق لكلينا.

صرت أعرف ماذا سيقول المدير، وماذا سيفعل، وإلى أين سينظر.

سيخرج قلم Bic من جيب سترته العلوي. يخرجه.

سيدقّ الطاولة بأسفل القلم دقّات رتيبة. يدقّ.

سيسحب غطاء القلم، ويثبّته على الجهة الأخرى. يثبّته.

سينفخ في كفّيه. ينفخ.

سيقرأ الورقة التي أمامه. يقرأ:

أنا الموقّع أدناه، أستنكر الحزب الشيوعي الهدّام، وأعلن ولائي وإخلاصي لجلالة الملك المفدّى، ولحكومته الرشيدة.

سيقول: وقّع هنا. يقول.

سأصمت. أصمت.

سيرمي المدير القلم على الدفتر بضجر. يرميه.

سيلقي فروته عن كتفيه. يلقيها.

سيقوم إلى المدفأة في وسط الغرفة. يقوم.

سيرمي طاقيته على الطاولة. يرميها.

سيمسح صلعته براحة كفّه. يمسحها.

سيعود للجلوس إلى الطاولة. يجلس.

يا إلهي ما أضيق عينيه!

الحاج مُلقي مدير السجن رجلٌ طيّب، يعرف بحدسه أنّ انصياع سجينه للتوقيع سيكون خدمة لا تُنسى للباشا. لقد حوّلت دائرة المخابرات القضيّة إلى المحكمة، لماذا يُقحم نفسه في هذه المهمّة؟ هل يُشفق على الولد؟ ربّما، لعلّ الدافع وراء هذه المناورة اليوميّة هو كسب رضا عمّي الباشا.

أثناء هذه المواجهات لم أكن أفكّر في الدفاع عن أنبل وأصعب فكرة راجت في القرن العشرين، ولم تحضرني مقولات ماركس ولينين، ولا كنت أدافع عن برنامج الحزب الشيوعي الأردني. كانت لعبة مجاحرة تنتهي بفعلي أمر متلازمين:

اعترف. استنكر.

فلم أجد غير غصن الياسمين أتمسّك به، وحكاية الأمير الصغير أسترجعها وأتسلّى بها، والعناد أستمتع بإشهاره سلاحاً يرسم الخيبة على وجوه خصومي.

يعاود الحاج مُلقي الدقّ بالقلم على الطاولة بملل.

– إذن ستواجه المحكمة.

...

– إنها محكمة عسكريّة.

...

– لا تمييز ولا استئناف.

...

– عشر سنوات مقابل التوقيع على سطرين حكي؟!

...

في البداية كان يقول كلّ جملة على حدة، وينتظر الردّ. ثمّ صار يختصر فترات الصّمت بين الجمل؛ حتى وصل به المطاف، بعد أسبوع من المكابدة، إلى قولها سريعة متتابعة وكأنّه يُسمع محفوظة: إذن ستواجه المحكمة، محكمة أمن الدولة، إنّها محكمة عسكريّة، لا تمييز ولا استئناف، عشر سنوات مقابل التوقيع على سطرين.

لمّا سمحوا لأبي بزيارتي في مكتب مدير المخابرات، هتف بي حانقاً: انت مجنون ولك، تقبل يحكموك عشر سنين بدل التوقيع على سطرين حكي، لا يزيدوا بملك سيدنا شبر، ولا ينقصوا من طولك فتر.

ضحكت مبدياً خفّة دمٍ راقت والدي: «يابه أنا واحد مجنون زي ما بتقول، لكن الحكومة مجنونة تسجن واحد عشر سنين من شان سطرين حكي؟»

أطرق والدي متمتماً: «خرا على هيك حكومة».

وتظاهر المحقّق بأنّه لم يسمع.

* * *

خلال زمن قصير اكتشفت فوائد الهرولة في السجن، وتعوّدت دقّات كنيسة الروم المجاورة أيّام الآحاد. تعرّفت إلى أصوات الباعة غرب شبّاك المهجع الذين تتغيّر نداءاتهم وألحانهم حسب بضائعهم. صرت أصغي لنغمات الطبلة والزغاريد في سجن النساء، وأتخيّل نساءً مارقات شهيّات يرقصن شبه عاريات هناك. صار لي حيّزٌ على الحائط الشرقي بعرض تسعين سنتمتراً أعلّق عليه أشيائي، ولي امتداد هذه التسعين سنتمتراً على الأرض مسافة متر ونصف، فعلى نزلاء السطر الذي أنام فيه أن يثنوا سيقانهم عند النوم ليلاً ليفسحوا المجال لمن ينامون في المَرْدَوان، أي الممرّ النهاري المتاح بين السطرين الشرقي والغربي.

مفردات مثل الكناش، البرش، الفورة، القاووش، المردوان ظلت حيّة من أيّام الحكم التركي، ومتداولة فقط في السجن، وكأنّ السجن له جيناته الخاصّة التي يتوارثها المكان غير عابئ بالزمن، ولا بتبدّل الأحوال.

ونزلاء الممرّ ليلاً هم الزُّقْرُط 3 . يقضون وقتهم خلال النهار في شكّ الخرز، وعمل مسابح طويلة من نوى الزيتون. وفي الليل يتكعبلون في المردوان بين أرجل المسنودين إلى الحائط من الغرب والشرق.

تعوّدت أن أسهر في الليل، وأنام نهاراً بعد أن يفرغ المَرْدَوَان من نزلائه، كي أمدّد ساقيَّ بطولهما. والساهر يسمع ويرى العجب: الشخير والنخير. ذاك الذي يمشي وهو نائم، والذين يتبادلون المواقع لأسباب غامضة، والذي ينام جذعه على الأرض وساقاه مستندتان إلى عمود الوسط.

عند قدميّ مباشرةً كان ينام لصّان خلف خلاف، أي رأس هذا عند قدمي ذاك، هما بو زهرة والقطّ. استيقظ بو زهرة على ارتعاشات جسد القطّ، ولهاثه المريب. استند ساخراً: سلامتك. سلامتك. شو فيه؟

وضع القطّ قدمه في صدر أبي زهرة المشجّر بالجروح الملتئمة، ودفعه: انطم ولك. عيب تتجسّس عليّ.

لولا عسّاف لكان مبيتي بين هؤلاء في الممرّ. لكنّي محظوظ لأنّي صُنّفت مع عسّاف في الطبقة الثالثة من النزلاء. فالسجناء هنا خمس طبقات حسب تصنيف الختيار:

1 - العفش: لأنّ عفشهم؛ أي فراشهم وأغطيتهم وأوانيهم وطعامهم من خارج السجن، وهم سكّان الدار البيضا. النخبة المختارة، سند الإدارة في تنفيذ قراراتها، وترويج إشاعاتها، والنموذج الرسمي للانضباط، والخضوع، قدوة لعامّة المساجين.

2 - النواطير: عرفاء المهاجع ومن وازاهم أو حاباهم أو رشاهم. يحتلّون زوايا المهاجع، ويتنافسون لاحتلال أحد الشبّاكين لاستعمالهما خزائن لمقتنياتهم البالغة الأهميّة.

3 - النزلاء: نزلاء السطور الأربعة المستندة إلى الجدران مثل أصحاب الدكاكين، والذين يتلقون دعماً ماليّاً من ذويهم مثلي وعسّاف.

4 - الزقرط: وهم الذين بلا سند من أهل أو عصابة تدعمهم. ينامون متراصّين خلف خلاف؛ ويتكوّرون على أنفسهم في المساحات الميتة حول قواعد الأعمدة الضخمة. هم أول من يستيقظون صباحاً، وينامون بعد تناول وجبة العشاء مباشرة. منهم الذين يعملون في المطبخ، والتنظيفات، والمشاغل؛ يصلحون المعطوب، وينسجون الأبراش من البطّانيّات المهترئة، ويصلحون البريموسات.

5 - السفراء: وهم شمّيمة الآغو، والسكرجيّة العابرون، وضرّيبة الشفرات، والنشّالون، ومن لا والي لهم ممّن قُبض عليهم في ظروف تجلب الشبهة، ولا قضايا واضحة يحاكمون عليها. يخرجون من السجن، ويعودون إليه بين عشيّة وضحاها. لا مكان محدّد لهم في السجن، ولا خارجه. لذا فهم سفراء رُحّل دائماً. وفي سجن المحطة في العاصمة عمّان لهم مهجع خاصّ بهم يسمّى السفارة.

قد يرتقي النزيل إلى مرتبة أعلى، وقد ينزل إلى منزلة أدنى. ولكن لا مناص من ذكر ملحق خاصّ بفئتي التنابل والعصافير: العصافير هم أعين الإدارة، وآذان الأجهزة الأمنيّة الكثيرة، ويغضب واحدهم إذا نعتّه بالعصفور. هم مبثوثون على درجات السلّم الخمس كلّها. ومثلهم فئة التنابل الذين قرّروا مواجهة الحبس بالتنبلة، والنوم، والتطنيش. موجودون في كلّ مهجع، وأشهرهم معالي الوزير، نزيل الدار البيضا.

* * *

هنا يجري عدّ المساجين مرّتين يوميّاً: العدّ النهاري؛ ويتمّ بعد الغداء بوقوف المساجين في الساحة طابوراً بخمسة مسارب. كلّ خمسة بجانب بعضهم بعضاً. والعدّ الليلي يتمّ بأن يقف المساجين كلّ واحد على برشه ومن يتمّ عدّه يجلس. ويعاد العدّ إذا لم يتطابق مع الرقم الإجمالي المسجّل عند قلم السجن.

جاء الشاويش حيدر بعد العدّ المسائي. تخطّى أجساد النائمين في الممرّ بحرص، وجاء إلى حارة أبي حديد. كنت مستمتعاً بالاستماع إلى المساجين، وهم يتبارون في تجويد حبكات قصصهم، ويضخّمون بطولاتهم في محاولة لتزيين الوقت.

المساجين صادقون وقساة، وإذا شابت قصصهم بعض المبالغات المكشوفة؛ فهي تخرج من باب الكذب وتدخل فضاء التهريج، أو متعة الحكاية.

شاركهم الشاويش حيدر الحديث. وتدخّل بين لاعبيْ شطرنج:

– انخش حصانك يا بو زهرة.

– لا. يعقط يا شاويش.

ضحكوا.

أخرج شاويش الشرطة ورقة وقلماً، وتوجّه لشاويش المهجع:

– طلباتكم يا بو حديد. شو ناقص عندك؟

– خير يا طير؟

– خالتنا الحكومة صايرة حنونة هالأيام، شو السيرة؟

نهرهم حيدر:

– مِشْ عاجبتكم الحكومة يا همل؟

– حكومة روعة. هاهاها...

– مين قدّنا؟ شرطة، وأجهزة أمنيّة، وقضاة، ومحاكم يسهروا ع راحتنا. هاهاهاها.

– خالتنا الحكومة تقدّم لنا الطعام مجّاناً.

– قصدك العلف. هاهاها.

– والخدمة الصحيّة مجّاناً.

– أسبرين وبنسلين لكلّ العلل.

وتداخلت الأصوات في هذر ساخر، فأخرج حيدر صفّارته من جيبه، في إشارة تحذيريّة، وقال:

– كل واحد يضبّ على اللي عنده. أنا فعلاً مكلّف بنقل طلباتكم للإدارة.

– شو؟ الصليب الأحمر جاي تفتيش بكرة؟

تدخّل الشاويش أبو حديد:

– خالتكم حنونة تسأل عن طلباتكم، ليش الزعل؟

أشهر الشاويش حيدر ذيل قلمه، وأشار نحوي:
– نبدأ من عند الضيف.
رددت بجديّة ندمت عليها:
– هذا سجن هذا؟ هذا اصطبل. زريبة.
سارع عسّاف بامتصاص تقطيبة الحاجبين التي ألمّت بالشاويش:
– أنا عندي طلبات يا شاويش.
– هات يا عسّاف.
قال عسّاف بفصحى ساخرة:
– أنتم لا تنظمون لنا رحلات سياحيّة.
ضحك حيدر.
كرّت سبحة السخرية من جديد:
– راتبي قليل.
– كندرتي ضيّقة يا شاويش.
– مرتي تطلب الطلاق.
غضب الشاويش حيدر، وهتف:
– من العمود وجوا كلّكوا محرومين من الفورة بكرة.
ردّ صوت من المَرْدَوان بدا نائماً طيلة الوقت:
– يا لطيف. حرمتنا من نزهة على شواطئ الريفييرا.
قال حيدر بمزاج رائق:
– إنت صاحي يا نص نصيص؟ قوم فرجينا تمثيليّة.
قام سعيد القطّ يؤدّي مشهداً كوميدياً، ويستقطب هدوء المهجع:
«ها هو القطّ يتقدّم. ها هو يتناول ربع الكونياك. بوغوص لا يترك القنّينة قبل أن يتناول ثمنها.
يفلت القطّ يده عن بريزة بحالها. يلتقط بوغوص البريزة. يعيد له قرشين.
– ثلاثة يا بوغوص.
– لما ترجّع القنينة توخذ القرش.
يقلّب القطّ الربعيّة في فمه. يأخذ نفساً عميقاً. ينفض رأسه فتهتزّ شفتاه، وينفخ منتشياً.
– ديزل... خذ الزجاجة يا بوغوص. لا ترجّع القرش. أعطني بالقرش مخلّلاً.
يأكل القطّ المخلّل. يشعر برغبة في جرعة أخرى، بوغوص يقول له: الدفع أولاً، ماذا يفعل المسكين؟
– هه. يسرق.

– وماذا تفعل عين الحكومة الساهرة؟
– تحبس القطّ.
– يسهرون من أجلي. هههه.
كأنّه لا يوجد لصوص في هذه البلدة غير القطّ.»
هذه أول مرّة أضحك فيها من قلبي في هذا المكان. لقد شخّص سعيد القطّ دور بوغوص بلكنته الأرمنية، وكرشه العريضة، ورموشه التي لا تكفّ عن الرفيف، وأدّى دور الزبون الدايخ، وتقمّص عين الحكومة الساهرة. لقد أدّى المشهد بمهارة.
خرج حيدر وهو يضحك مردّداً: «مجانين. مجانين».
ونسي أن يخبرني بموعد محاكمتي التي تقرّرت في 26/4/1977.

* * *

ذاكرة الألم قصيرة. ألفت أناقة عسّاف المفرطة، وخفّة القطّ المضحكة، ووشم ذراع بو زهرة القبيح، وشلاطيف أبو حديد التي تهتزّ إن تكلم وإن سكت، وصمتُ الشكّيك المريب، وأنف الختيار المتورّم... لماذا تتضخّم أنوف المسنّين؟
انتظم إيقاع عقارب الساعة.
اليوم مثل أمس مثل الغد؛ تماماً كما يعيش الناس خارج السجن.
نسيت رائحة الياسمين، وألفت البراغيث. وشمّيسة الصّبح، وحوض الماء، وشبك الزيارة الممتدّ إلى الشرق من البوّابة الداخلية 4 . وتعوّدت نكهة القضامة المتفحّمة التي تغلي مع قهوة الطموني، ترف النزلاء المتاح. معدّاتها الشحيحة المعلّقة على الجدار بمساحة لا تزيد عن متر مربّع؛ كافية لتزويد النزلاء بالشاي والقهوة: كاسة الشاي بقرش، وفنجان القهوة بقرشين. وسيجارة الكمال بتعريفة.
اشتريت سيجارتي كمال وفنجاني قهوة، وجلست في ركن مشمس مع الختيار الذي كان ينسج لي قلادة خرز رفع الختيار عينيه الكليلتين عن الخرز، وتحرّكت تفاحة آدم صعوداً وهبوطاً بين ثنايا رقبته المجعّدة، وقال: شو عمّو؟ أشوفك انسجمت مع حياة الزريبة؟
لم أفهم. تفرّست وجه العجوز؛ كانت الحطّة المرقّطة بالأسود التي يرتديها دائماً حتى وهو نائم تلقي ظلالاً على أخاديد وجهه فتبدو أعمق من المعتاد. حقاً إنّه ختيار يُذكّر بكبير عمّال مطبعة جريدة الصّباح حين يجهده السهر. (عملت في الصحيفة متدرّباً الصّيف الماضي.)
الختيار منزعج لوصفي مهجعنا بزريبة الدّواب.
– هون نام أجدادك قبل ما يسكنوا حوّارة. آه، كان الحكم للبدو، وما حدا يسكن السهل. بتعرف ليش؟
صمَتُّ: عمَّ يتحدّث الختيار؟

– كانوا يحصدون محاصيلهم ويضبّوها بالمغر والبيار، ويطلعوا ع الجبل، وفي الليل يشيلوا مونتهم منها أول بأول.

وازن عقاله على رأسه، وتابع:

– هيك كان الفلاح يسرق لقمته من سطوة البدو، وضرايب العصملي. ما حكى لك أبوك وجدّك؟

فهمت ولم أفهم. وتشوّقت لسماع الحكاية. حككت رأسي لأسأل عن أجدادي، وما علاقتهم بدار السرايا.

توقّفت أصابع الختيار عن العمل، وصوّب أنفه الضخم إلى كبد السماء:

– لكنّه اليوم سجن، زريبة على رايك. الدواب تتعوّد مرابطها. لكن الزلم ما تنربط.

بماذا أردّ؟ أصمت.

رفع الختيار رأسه باعتزاز:

– أنا ابن التلّ، بيتي على الدرج هناك، درج التلّ ما غيره. جنب دار الدكتور الحناوي.

غصّ الختيار بدمعته، وتابع:

– أحسّ كأنّ بيتي بعيد عنّي بعد نجم سهيل. لكنّي تعوّدت.

قاطعنا حضور عسّاف. وقف أمامنا، وهتف برعونة كمن يزفّ بشرى:

– اطمئنّ يا ابن عمي ما فيه محكمة.

مسح الختيار أنفه الكبير، وما سال على وجنته بطرف شماغه، وضحك:

– سلّمت تقاريرك وجيت يا عسّاف؟

لم يعره عسّاف اهتماماً وتوجّه إلى ابن عمّه بثقة:

– خبر من راس النبع.

رفع الختيار حاجبيه الثلجيّين دون أن تكفّ أصابعه عن تحريك الصنّارة على خيط الخرز بمهارة، وقال داغماً حرف الراء على طريقة عسّاف:

– كيف عرفت؟ من الملازم عطا الله؟

سألت بجديّة:

– مين الملازم عطا الله؟

قال عسّاف:

– سيبك منه، مخرفن، هذا خبر من عمّي الباشا ذات نفسه.

ضحك الختيار:

– الباشا اللي حبسك؟

رغم أنّ خبريّة «ما فيه محاكمة» لاقت هوى في نفسي. إلّا أنّني تظاهرت بعدم الاكتراث، لأنّ عسّاف حقاً حُكم هذه المرّة سنتين بسبب احتياله على عمّنا الباشا. فقد زار الباشا في العاصمة وقال له:

– يا عمّي سوّدت وجهك. وأنا نادم. يكفيني مشاكل. بدي أعقل وأصير آدمي، أرجوك توسّط لي بوظيفة كويسة أكسب منها رزقي.

قال له الباشا:

– يا عسّاف ما عندك حرفة ولا شهادات. ما عندك غير سجلّك العدلي.

– ولكن بودّي أتوب عن جد يا عمّي.

– دوّر على شغل بالسوق، واثبت حسن سلوكك. بعدين يمكن نساعدك.

دفعاً للبلاء منحه الباشا عشرة دنانير، وأرسله مع سائقه الخاصّ ليوصله إلى باصات إربد. فما كان من عسّاف إلّا أن طلب من السائق التوقف أمام محلّ أثاث فاخر.

– أنا فلان الفلاني. عمّي الباشا. وهاي هويّتي.

– أيّ خدمة يا بيك؟

– الباشا يجدّد أثاث داره، بدنا ثلاجة وغسّالة وتلفزيون و... و...

صرف عسّاف بيك سائق الباشا، وحمل غنيمته في شاحنة، وذهب ليبيعها في السوق.

وصلت الفاتورة إلى الباشا بستة آلاف دينار. وسُجن عسّاف.

سألت عسّاف:

– بكم بعتها يا عسّاف؟

– بألفين.

– بعتها برخيص.

– أبداً. هيه هيك بالجملة، انت ما تعرف جشع التجّار.

– شو عملت فيهم؟

– اشتريت فكسة بيضا مثل الحمامة.

ما علينا. ظلت تحوص في بالي حكاية ما فيه محكمة.

قلت لعسّاف:

– قم نمشِ.

مشى معي عسّاف، وهمس:

– الخبر أكيد لكن مو من الباشا.

– من مين؟

– من الحكومة.

– أيّ حكومة؟
– الملازم عطا الله حكى لي. وقال لي ما أخبرك، لكن.
– لا تكمّل.
تركته، ورجعت عند الختيار:
– مين عطا الله يا بو محمد؟
قهقه الختيار بصوت مجلجل:
– ضابط الأمن الوقائي... قلت لك يا هاشم ابن عمّك عصفور.

* * *

لمّا وضعت رأسي على المخدّة عادت خبريّة عسّاف ترنّ: ما فيه محكمة؟

فاح عطر الياسمين في خياشيمي، وسرحت أفكّر بالإفراج.

شعرت بأنّي حرٌ كطائر يحلّق فوق جامعة اليرموك؛ أتذكّر زملائي وزميلاتي، ووجبة الغداء على المسطّح الأخضر. أحلام اليقظة تذهب بي إلى محاضراتي مع أساتذتي وزملائي وزميلاتي، وأتذكّر تلك المناوبات الليلية في صحيفة الصباح حيث كان يستمرّ الجدل بين الشباب منقسمين بين مؤيّد لتدخّل الجيش السوري في لبنان إثر اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وبين معارض لهذا التدخّل. يسرفون في شرب القهوة والتدخين حتى طباعة النسخة الأولى من الصحيفة التي كان وصولها من المطبعة يبثّ فينا فرحة متجدّدة كلّ مرّة، نحمل النسخ الأولى ساخنة، نبحث عن أسمائنا مطبوعة على استحياء في ثناياها، ونهبط مع أول خيوط الفجر مشياً إلى وسط المدينة لتناول الحمص والفول والفلافل والشاي على رصيف مطعم هاشم، ونستعرض مهاراتنا في رصد تفاصيل استيقاظ المدينة.

الآن، لا تراودني الأحلام الكبرى حول الحرّية والتحرّر. أبحث عن يقيني المتفائل أبداً بتحرير فلسطين ووحدة العرب والعدالة الاجتماعية، وعن اندفاعي الحارّ بالترويج لحقّ الناس في حرّية التعبير وحرّية التغيير. وأشعر بأنّ إحساسي بأنّي فاعل في تغيير هذا الكون يتراجع. أفكر بحريتي الشخصية، وأكتفي بالإشفاق على أحوال المساجين.

أتذكّر زملائي الذين كانوا يضيقون ذرعاً بالمحاضرات وبالامتحانات ويهربون إلى مقاهي المدينة ويعلو جدلهم صاخباً معرباً عن ضيق انحيازاتهم الحزبيّة، ويتقاذفون الأفكار بلا تمحيص. لا يدركون متعة أن تجلس مع صديقتك على الرصيف المغبرّ، ولا يستمتعون حقّ المتعة بالجلوس تحت دالية الصّريحي الذي جعل حديقة بيته كافتيريا صيفيّة لطلاب الجامعة.

آه يا صديقاتي كم أضعت من الوقت في مدح الاشتراكيّة، وفاتني أن أقول كم أنتنّ جميلات. آه ما أقسى أن أدور في باحة السجن بلا هدف.

آه ما أروع أن أهيم في شوارع العاصمة مع بزوغ الشمس.آه كم أحنّ لياسمينة بيتنا.

وطفا على تأوّهاتي سؤال لرفاقي له طعم القطران:
– لماذا أنا هنا؟... لماذا أنتم هناك؟

* * *

كنت يقظاً حينما نادوا عليّ بعد أذان الفجر لأجهّز نفسي للسفر إلى العاصمة.
حضّروا موكباً ضخماً لمرافقتي.
وحدي في البوكس: سيّارة المساجين التي يتّسع مقعداها الخشبيان المتقابلان لعشرين أو ثلاثين سجيناً.
شرطيّان يجلسان بجانبي داخل البوكس، وأمامنا سيّارة نجدة تصرخ وي وي يويو ووووو، وخلفنا سيّارة جيب مسلّحة بمدفع رشاش... وتوجّه الموكب إلى عمّان.
كانت المحاكمة أسرع ممّا توقعت.
دخلت قاعة المحكمة حيث كان المحامي عدي مدانات بانتظاري هناك.
قال الأستاذ:
– حكمك تقريباً جاهز، ولكن سأترافع عنك.
بعد قليل دخل مدير مخابرات إربد، ومعه ضابطان بملابس مدنيّة ممّن تولّوا التحقيق معي، جلس المدير في مقدّمة القاعة. تبعه الضابطان وجلسا في منصّة الشهود.
دخل ضابط بملابس عسكرية يضع وشاحاً أحمر، وعلى كتفه نجمتان لامعتان، شابّ وسيم بشوش، وقف عند منصّة مكتوب عليها المدّعي العام.
سيحدجني بنظرة حادّة.
جحرني. (البحلقة في عيني الخصم بوجه عابس صارم عادة أردنيّة أصيلة.)
أعاد وسيم بشوش يقوله الحاج ملقي. الفرق الوحيد أنّه لم يمسح جبينه براحة يده.
بعد صمت قصير، قال:
– لا حاجة بنا لاعترافاتك، ولا لتوقيعك البراءة من الحزب. المحكمة ستقرّر.
فكّ حيدر القيد عن معصمي، وجلست على مقعد خشبي طويل في قفص الاتهام، وصاح شاويش ملابسه العسكرية واسعة على جسده النحيل:
– محكمة.
وقف رجال المخابرات الثلاثة، والمدّعي العام، والمحامي. الشرطيّان اللذان يخفرانني ظلّا واقفين خلف قفص الاتهام مثل الرقم عشرة، يونس طويل ورفيع، وحيدر قصير وسمين.
لم أقف لأنّي لم أكن أعرف أنّ عليّ الوقوف.
دخل القاضي ومعه عضوا اليمين واليسار، ووقفوا خلف المنصّة، وكان الأستاذ المحامي يشير بيده هاتفاً:

– انهض. قف.
لكنّي تنّحت.
وانقلبت المحكمة!
خرج القاضي يتبعه العضوان غاضبين، واختلط الحابل بالنابل: المحامي يوضّح لي تقاليد المحكمة. وضابط المخابرات يتوعّد. المدّعي العامّ يمسح جبينه، وينظر من النافذة. حيدر يرجوني أن أمتثل للمحكمة. يونس يرتجف. وسيم بشوش.
فجأة أحسست بخطورة ما فعلت، وهبّت في روحي نشوة الياسمين، فاستمرأت التحدّي.
– محكمة.
دخل القاضي وتابعاه.
لم أقف.
خرج القضاة.
أعجبتني اللعبة، وركبت رأسي.

الكبار لا يفهمون شيئاً وحدهم، وإعطاء الشروح يتعب الصغار.

هتف الحاجب:
– رُفعت الجلسة.
أخيراً وجدوا الحلّ. أخرجوني من القاعة، ونادى الحاجب: محكمة.
وقف جميع الحاضرين إلى حين جلس القضاة تحت ميزان العدالة الذي تمسكه يد امرأة عمياء، ثمّ جلسوا.
أدخلوني إلى قفص الاتّهام وقد أخلي من المقعد الخشبي الطويل.
قال المدّعي العام شيئاً عن الخطر الشيوعي، وقال مدير مخابرات إربد شيئاً عن منشورات وكتب وأوراق، ووقف شاهدا الإثبات، وأكّدا أنّني شيوعي خطير. ردّ المحامي بطلاسم عن القوانين والدستور والمحاكم النظاميّة.
أخيراً جحرني القاضي، ووجّه لي سؤال القضاة الأبدي:
– مذنب؟
أجبت بثقة:
– غير مذنب.
– رُفعت الجلسة.
بعد أسبوع سافرت مرة أخرى إلى العاصمة، لم تستغرق الزيارة إلّا دقائق معدودة.
باسم الملك، تلا القاضي الحكم بعشر سنوات سجن، بموجب قانون مكافحة الشيوعيّة رقم 92 لسنة 1953.

لم أضطرب، بل لم أفكّر في قرار المحكمة، كأنّ الأمر لا يخصّني.
لمّا خليت بنفسي في البوكس، ضحكت متسائلاً: هل أنا سويّ؟

* * *

عند الضحى عاد الموكب من المحكمة العسكريّة في عمّان إلى ظهر التلّ في إربد.
تبدّى لي مشوار العودة أقصر من رحلة الذهاب. الربيع في آخره. هبطت من البوكس فبهرتني شمس الظهيرة. فركت عينيّ بيديّ المكلبشتين إلى الأمام. مشيت محاطاً بحارسيّ، مررنا ببائعات البصل الأخضر، والجزر والخبيزة، وتخطّينا سلال العكوب، وصواني الزبيب البلدي. توقّف الشاويش حيدر عند حزم الحمّص الأخضر يتذوّقها، وهبش يونس كمشة زبيب أحمر. وخفتت أصوات الباعة قرب درج الدرك، حتى مرّ الموكب.
صعدنا الدرج الخارجي من الجهة الغربية، المفضي إلى غرف الإدارة فوق السجن.
درج حجري مكشوف بلا بسطات، يقود إلى الإدارة دون المرور ببوّابة السجن.
صعدت عرزال الحكومة المطلّ على المدينة متوعّداً ومنافقاً، حسب تعبير القطّ. أول ما لفتت انتباهي أبراج الحراسة، أو بدقّة أكواخ الحراسة: قباب خشبيّة صغيرة كالحة الزرقة بالكاد تحمي الخفير الضجر من المطر أو سطوة الشمس. قباب حراسة مهترئة. أسوار قديمة متهالكة. أسلاك شائكة صدئة. وحرّاس يأكلهم الملل. ولكن أين المفرّ؟
رأيت خفيراً يقف بكآبة عند نهاية الدرج، وخلفه أصص نباتات مصفوفة على الدرابزين غير أنّه لا وجود فيها لنباتات أو أزهار. ربّما مرّ على المكان «بيك» هوايته الأزهار ونباتات الزينة، وأهملها من جاء بعده.
أشتاق إلى معرّشات الدالية على مداخل بيوت إربد المتراصّة حيث تجلس في عمقها النساء على المصاطب والبرندات المزدانة بأصص الريحان، وأحواض البنفسج، ومكنسة الجنّة، وزهور فم السمكة، ونباتات السجّادة ذات الأوراق المخملية المتعدّدة الألوان.
الغرف العلويّة تُعدّ حديثة بالنسبة للمهاجع التي تحتها، ولكنّها كالحة.
دخلت غرفة المدير. قام الحاج ملقي من لبّ مقعده، واستقبلني في المنتصف:
– أهلا عمّو.
أمر بفكّ قيدي، ودعاني للجلوس على كنبة جانبيّة. وكان يجلس قبالتي رجل بملابس مدنيّة.
سألني الحاج ملقي كمن يسأل ضيفاً عالي المقام:
– كيف قهوتك يا هاشم؟
– مرّة.
الرجل الذي بملابس مدنيّة مدّد ساقيه، وصعّر وجهه، وقال ساخراً:
– غاب وجاب والله. عشر سنين؟ هيك الزلم ولا بلاش.

تنحنح الحاج ملقي، وكأنّه غير موافق على ما قاله الرجل.

مال الرجل الذي بملابس مدنيّة بجذعه للأمام، وفرد كفّيه كمن يستعدّ لتلقي هديّة، وجحرني:

– لازم تعرف الآن انك محكوم عشر سنين سجن. يعني إن عشت؛ تطلع من هون لما ينوّر الملح.

أجمل ما في الحاج ملقي عيناه الضيقتان لأنّه لا يستطيع أن يجحر جيداً. لذا مسح صلعته بكفه، وقال مشيراً للرجل:

– البيك جاي من عمان خصّيصاً عشانك.

وضع البيك كفّيه على ذراعَي الكنبة، وقال بصوت أسيف:

– شو ذنب أبوك الحجي تجرجر عباته وراك عشر سنين.

صمتُّ صمتاً له رنين نحاسيّ.

تابع:

– أنا حزين لأجل أمك.

انعقدت سحابة مرّة في حلقي فبلعتها، واعتصمت بصمتي النحاسي.

قال الحاج ملقي:

– الحكومة حنونة يا ابني. انس المحكمة والحكم، أيّ وقت تقرّر تغيّر رأيك البيك جاهز يسمعك.

كأنّي اقتنعت بقبول وساطة البيك، فلملمت أفكاري لأدخل في حوار ليّن قد يفضي إلى عقد صفقة ما. لكنّ البيك الذي يلبس بنطلوناً رمادياً وقميصاً أبيض وجاكيتاً بنيّاً سارع للقول:

– استنكر وأعلن ولاءك؛ لأنه لما يخلصوا العشر سنين برضه رح نظل وراك، وننكّد عيشتك.

هكذا أيقظ البيك الذئب داخلي بقوّة... حدجته بنظرة فيها تحدٍّ واضح. وواصلت صمتي.

رفع الحاج ملقي فنجان القهوة التي قُدّمت بلا صحون، رشف منه بتأنٍّ، وقال:

– كان بدهم ينقلوك للسجن المركزي بعمّان. لكن رحمة بأمّك وأبيك خليناك هون قريب من أهلك.

قال البيك هازئاً:

– يجوز انت تحبّ تروح على المحطة عند المنظمات والرفاق.

شفط الحاج ملقي رشفة طويلة من فنجانه، وقال:

– لكن قرّرنا تظلّ عندي. أقرب لأهلك.

راقبت خيطاً طريّاً من القهوة على جانب الفنجان المشروم أمامي. رفعت فنجان القهوة بهدوء، فترك قعره دائرة سوداء مغلقة على الطربيزة. كان الفنجان ثقيلاً ثقل العشر سنوات القادمات. لكنّي شعرت بأنّي قادر على تجرّعه، بل والاستمتاع بنكهته.

مسحت خيط البنّ بإبهامي، ورحت أتأمّل مكان بصمة الإبهام: ابصم. لا أبصم. ابصم؟ ما أنا بباصم.

لان البيك قليلاً، وقال:

– فكّر بالموضوع يا بنيّ، وعفو سيّدنا واسع.

تحاشيت الجانب المشروم من الفنجان، واحتسيت قهوتي بهدوء محملقاً بالدائرة المغلقة التي تركها الفنجان على الطربيزة الخشبيّة أمامي.

فرك البيك الذي يرتدي جاكيتا بنّياً كفّيه، وقام دون أن يلمس فنجان قهوته:

– ما فيه فايدة. فالج لا تعالج.

تركني الحاج ملقي مع فنجان قهوتي، وخرج يشيّع ضيفه.

* * *

لسرٍّ ما كان لكلّ باب رائحته. غابت بوّابة الياسمين، وحضرت بوّابة العطن. شعرت بعتبة باب السجن كأنّها خطوة صغيرة بين عالمين. وصار الباب حارساً، والحارس مفتاحاً، والمفتاح خصماً. أصغر المفاتيح مفتاح الكلبشة. أخطر المفاتيح أصغرها؛ يقولون في حوارة: هاشم مفتاح سجنه بيده، أي وقت بده يطلع من السجن يستنكر ويطلع. راسمالها يكتب ورقة...

ورقة؟ ما أثقل هذه!

أهذا هو المفتاح؟

المفاتيح في السجن ليست مفاتيح بل مغاليق. تخشخش هنا ليل نهار لتذكّر السجين بأنّه سجين. ومفتاح فرجي ورقة تذكّرني دائماً بأنّي حرّ.

ما أصعب المعادلة!

ريثما يُتمّ قلم السجن إجراءات تسجيلي سجيناً رسميّاً ينفّذ حكماً قضائياً؛ وقفت في البرزخ الحرام بين الباب الخارجي والشبك الداخلي. هذا البرزخ الذي سيؤرّق لياليّ في قادم الأيّام بغصّة معدنيّة تتدحرج من حلقي إلى أسفل السرّة وبالعكس. حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثلاثة شهور وخمسة أيّام وثلاث ساعات انقضت مع عجائب السجن، وقبلها شهران وواحد وعشرون يوماً وتسع ساعات في زنازين المخابرات، مرّت مثل ليلة حمّى طارئة؛ واستيقظت على رائحة عطن السجن. كأنّ السجن لم يكن عطناً من قبل!

لمّا اعتقلوني من فراشي في ليلة صفرت فيها الريح، وكان البرد يسفع الجدران، ويلسع العظام، ووضعوا القيد في يدي وألقوا بي في اللاند روفر، لم أشعر بهذه المرارة التي أحسّها الآن وأنا أحمل عشر سنوات قادمات على ظهري، وأعبر البرزخ بين الباب والشبك الداخلي.

لمّا جاء زوّار الفجر لاعتقالي قاومت بقبضتي وركلات قدمي. خرج أبي بمنامته شاهراً بندقيّته الكلاشن. وأطلق صلية في الفضاء. ارتفع صوت أحدهم هاتفاً: مخابرات. مخابرات. وأيقظت ليل

القرية صلية رشاش ثقيل رابض في مؤخّر لاندروفر دكناء، فظننت أنّها موجّهة إلى صدر أبي. خرجت أمّي مذهولة منفوشة الشعر، وحضنتني تتلقّى عنّي اللكمات. توافد الجيران بمناماتهم مذعورين. جرّوني من حضن أمّي بعنف، فتشبّثت بشجيرة الياسمين التي على باب الدار، وعوى ذئب في مكان بعيد.

وضعوا القيد في يديّ، وألقوا بي في الحافلة التي انطلقت بعنف مبعثرة حصى الطريق. عندما استوت الحافلة على الطريق المعبّد، وجدت غصناً من ياسمينة أمّي عالقاً في قبضتي. هززته بحنق وتصميم، وهتفت بصوت جريح: ولا يهمّك يمّه؛ وفاحت رائحة الياسمين المطرّز ببلّورات الماء المتجمّد تملأ روحي تصميماً على التحدّي.

ذلك اليوم الربيعي، في ذلك البرزخ بين بابي السجن، شعرت بالمرارة تعكّر رائحة الياسمين في نفسي، وضاقت روحي بذلك القفص الذي كنت أراه في غدوي ورواحي إلى المدرسة الثانوية، وكنت أظنّه دائماً سيركاً أعدّ لسواي.

لا لن أتعوّد هذه المرارة. لن أستسلم لزمن السجن ورتابته. سأستنكر الحزب، وأعلن ولائي، وأستريح.

* * *

استقبلني زملائي بحفاوة كأخ عاد من دولة خليجية، لكنّي عدت إلى مهجعي مغموماً.

– شو أخبار العفو؟

جاوبتهم ضجراً:

– لا أعرف.

قال أبو حديد كمن يقرّ بديهيّة:

– طبعاً فيه عفو عام.

مجرّد ذهابي إلى عمّان وعودتي يستدعي الاستفسار عن العفو، وكأنّي ذهبت لمقابلة الملك ذاته.

العفو: هذه الكلمة السحريّة التي يُنسج حولها كلّ يوم حلم بالحريّة، وتتردّد حكايتها في مهاجع المساجين منذ عرف بنو البشر الحبس؛ سيتردّد صداها على مسمعي وفي روحي حتى أقرّر خلاصي.

إشاعات العفو، مخدّر يجترّه السجناء باستمرار حتى يصير الأمل في الإفراج بعد أيّام طويلة من المناورة والمطاردة والإلحاح سراباً لا يجرؤون على الاعتراف بزيفه.

ما أضيق السجن بلا وهم يهدهد أوجاعه.

نهلت من شراب الوهم المسكر لأخفّف المرارة في حلقي، ونقلت إلى أمّي وأبي إشاعات العفو التي يتداولها المساجين، فأشرقت أساريرهما بالأمل.

صار الشاويش حيدر يروي تفاصيل الرحلة الربيعيّة من إربد إلى عمّان ومجريات المحاكمة باستمتاع، ويشيد بجسارة الرفيق، وكأنّه رفيق الرفيق.

وين الرفيق؟ راح الرفيق. أجا الرفيق. تلعب شطرنج يا رفيق؟ اسألوا الرفيق.

صرت أُعرف بالرفيق. صار لي لقب أُعرف به كما كلّ المساجين؛ من أبو حديد وأبو القناني وأبو حجاب، إلى الختيار والشكّيك واللبيس والتنبل. ألقاب اكتسبوها هنا، ومثلهم الكرزم وشعيط ومصيص، والقطّ والواوي وزغلول ووطوط.

الشرطة والضبّاط ومدير السجن لهم ألقاب أيضاً: حيدر كبّة، ويونس المطميط، وملقي أبو فروة، وعطا الله قفا الصاج. ألقاب لا يمكن إحصاؤها.

بدعمٍ من الشاويش حيدر، ارتفعت مكانة الرفيق في المهجع، وأسندت برشي إلى ركن محترم بجانب ركبة القاووش الجنوبيّة الشرقيّة، وصرت أمدّ ساقيّ كما أشاء عندما أنام، وصارت لي مخدّة أتوسّدها، وأبثّها مشاعري.

تنشب رائحة الياسمين في حلقي الليلة، فأشعر بالذنب لأنّني تسبّبت بترويع أمّي وأبي ليلة اعتقالي. أشعر بالأسف من أجل مكتبة الدار الصّغيرة والجليلة التي نهبوها كلّها ليفتّشوها في ما بعد على مهل بحثاً عن ماركس وأنجلز ولينين وماو تسي تونغ، فلم يجدوا غير كتاب «الأمير الصغير» تحت مخدّتي. ومن المكتبة أخذوا كتب الهندسة التي تخصّ أخي، وكتب محيي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي التي تخصّ أبي...

الغريب أنّهم أدرجوا كتاباً عن الثورة الجنسيّة عند فلهلم رايش، وكتاب «كفاحي» لهتلر ضمن المستمسكات التي قُدّمت للمحكمة لإدانتي بالشيوعية.

عندما زارني أخي المهندس، ضرب الجدار الذي يعزل بيننا بمقدّمة حذائه 5 ، وهزّ القضبان بقبضتيه، وقال: يا ريتني مكانك يا هاشم.

ماذا أقول؟

شددت على يدَي أخي، وصمتّ.

أخي بعثي من جماعة صلاح جديد. محروم من جواز السفر، ممنوع من العمل في الوظائف العامّة، لكنّه وجد فرصته في مكتب هندسي يدرّ عليه دخلاً أفضل من الوظيفة الحكوميّة. أخي من المغضوب عليهم عند حزب البعث الحاكم في سوريا، وعند حزب البعث الحاكم في العراق، وعند حزب المخابرات الحاكم في الأردن.

يقول أبي: شو هالحزب اليتيم؟ لا مع ستّي بخير، ولا مع سيدي بخير... بعد اعتقالي صار يقول: اقبل منحوسك لا يطلع لك أنحس منّه.

يُطرق أخي متحيّراً، ويتمتم: صارت أمّي تحرّم دخول الكتب إلى بيتنا.

سلّم أخي على سجين زميل له؛ المهندس «ماصورة» نزيل الدار البيضا، وأوصاه بي خيراً، ومضى.

أشعر بأنّ حظّي عاثر، فهناك عشرات الرفاق المعروفين، ومئات الحزبيّين المعارضين، وآلاف الموالين للمنظّمات الفلسطينية يُضيّق عليهم السفر، وكسب الرزق، والعيش بأمان، وقلّة منهم تصطادهم قضبان السجن.

هل اصطادوني ليروّعوا بي جامعة اليرموك الفتيّة؟

هل هي مجرّد رمية نرد رمتني في هذا المكان الكئيب؟

السجن منافق.

حياة السجن أضيق من الحياة خارجه، ولكنّها مزدحمة أيضاً. هنا يعدّون حبّات الخرز، ويحرّكون أحجار الشطرنج، ويرمون النرد، ويحسبون دبيب الزمن المتتابع فوق جلودهم.

محدوديّة المكان إحساس سطحي أوليّ. السجين يفتقد أشياء لا يفطن لها الناس في حياتهم اليوميّة.

أفرح كطفل بكلّ ما يعتبره الناس عاديّاً.

أليس متعة أن أمدّد ساقيّ إلى آخر مدى أثناء النوم؟

أفتقد متعة المشي مسافة طويلة باتّجاه واحد.

ما ألذّ رائحة الياسمين على باب بيتنا.

تفوح رائحة الياسمين ببساطتها المذهلة، ويحضر طيف أمّي بجدائلها الخصبة المدلّاة كحبل نجاة.

يمّه؛ روحي ترفرف مثل عصفورة منتوفة الريش تحنّ إلى دفئك.

أحنّ إلى صوتك، وأستعين على حبس دموعي باستعادة قصصك قبل النوم: كان يا ما كان، كان فيه حديدوان، وكان فيه غولة.

– أسنانها. كيف أسنانها يمّه؟ من الأول يا يمّه.

– أووه... ما قلنا وعدنا.

– حلفتك بسيدي شرحبيل من الأول يمّه.

– من الأول صعب.

تهتف الأخت:

– يا يمّه كملي.

– وين وصلنا؟

– لحدّ ما سكنت الغولة في القرية.

يتراقص لهب السراج في كوّته للحظة، وتكمل الأم: هرب الناس من القرية وتركوها للغولة، وما ظلّ بالميدان غير حديدوان. الغولة لحقت حديدوان.

– امسكته؟

– طَوّلي بالك يا مقصوفة العمر.

حاصرته في أحد الأزقة، هجمت عليه. هرب منها. لحقته تهزّ الأرض من حولها.

اختفى داخل دكّان الحدّاد، يد الغولة الكبيرة تسدّ عليه الباب، دقّ الجدار بعزم. فجأة صرخت الغولة صرخة هزّت القرية. وسقط حديدوان مذعوراً. ويا للعجب. شاهد يد الغولة تنكمش، وتنسحب مسرعة خوفاً من النار.

الغولة تخاف النار؟

أمسك قطعة خشب طويلة وأشعلها، فهربت الغولة. حمل حديدوان ناره وراح يسير في شوارع القرية الخاوية كما يشاء، ولما بزغ الفجر اختبأت الغولة في مغارتها.

وقف حديدوان على السور وصاح: يا ناس. الغولة تخاف النور والنار.

صار حديدوان يعمل نهاراً ليجمع ما يقتات به، ويشعل في الليل ناراً تحميه من الغولة.

يقف كلّ صباح على سور القرية ويصيح على من تسوقه الصّدفة قريباً من السور أن يأتي ولا يخاف. لكنّ الهاربين نقلوا الرعب لمن التقوا بهم.

ذات يوم مرّت بنت حلوة وشجاعة، سمعت حديدوان. وقفت عند باب السور. وسلّمت عليه. فرح بها حديدوان كثيراً، وقال لها: تعالي نتزوّج ونخلّف بنين وبنات ونطرد الغولة. لكنّ الغولة استغلّت ليلة احتفالهما بعرسهما، وراحت تلتهم كلّ ما هو قابل للاشتعال في القرية.

غضب حديدوان كثيراً، وصاح بالناس خارج سور القرية أن يعطوه حطباً يجدّد به شعلته في الليل، لكنّ الناس خارج السور كانوا مشغولين بصياحهم، وبإعداد الطعام للغولة.

– ليش يطعموها يمّه؟

– الخوف.

– ليش حديدوان ما يخاف؟

تتثاءب أمّي:

– يا سامعين الكلام نحكي ولا ننام؟

احكي يا أمي؛ احكي، فصحراء هذا الليل بلا حدود.

حديدوان لا يخاف. أنا أخاف. خفت أن لا أرجع إلى أمّي ولم أرجع. خفت من خيط النايلون، لكنّه صار ذكرى. لو كنت أعرف ما سأواجه من عنت ربّما كان هزمني الخوف. كنت أخاف السجن. ها أنا في السجن. لكنّي لست حديدوان. لست بطلاً.

تعيس هو الوطن الذي يحتاج إلى أبطال [6] . لا أدري لمن هذا القول الجميل. هل يحتاج وطني إلى أبطال؟ يدّعي الراديو أنّ وطني واحة الأمن والاستقرار والأسرة الواحدة.

هل الوطن سعيد لأنّي في السجن؟

المخابرات سعيدة بزجّي في السجن، والحزب سعيد بصمودي، وأصدقائي سعداء لأنّي لم أشِ بهم.

الوطن سعيد جدّاً بدوني.

لكنّ أمّي ليست سعيدة. لا أريد أن أصير بطلاً. فقط أريد أن أعيش مثل باقي خلق الله. طز بالحزب. طز بالحكومة. طز بالأصدقاء. سأستنكر و... أصير حرّاً.

يحبو القطّ من بين النائمين، ويسند ذقنه إلى حافة الكناش [7] ، فأذبّه عنّي.

– إيش يا قطّ.

– مشكلتي مع السجن يا رفيق. مِشْ قادر أحوّله لفكاهة وأطنّشه. السجن فكاهة سمجة. بقدر أطنّش الموت لكن مِشْ قادر أطنّش السجن.

– الموت؟

– إذا طنّشت الموت يا رفيق يصير الموت مِشْ موجود. حتى لما تموت ما تعرف انك مت لأنك صرت بالجهة الثانية. السجن

فوجئت! أزحت الكناش عن ركبتي وتنهدت:

– لص وفيلسوف.

يضحك القطّ:

– لسه ريشك زغب. شوي يكبر، ويصير لك جناحين. وتطير.

– طيب. طير من هون يا قط. بدّي نام.

يختفي القطّ، أتمدّد، وتبقى عيناي معلّقتين بقبّة السقف المبعوجة، أستشير مخدّتي بشأن الاستنكار. أحاورها حتى يغلبني النوم.

في المنام أرى ورقة الاستنكار على هيئة عتبة على باب السجن بارتفاع شبر، أخطو فأجتازها إلى الخارج، لكنّي أجد نفسي في الداخل. أخطو مرّة إثر مرّة إلى الخارج وأجدني في مكاني. أستيقظ وأنا عبثاً أكرّر المحاولة.

بكيت حتى بلّلت مخدتي.

* * *

اعتدت مسامرة سعيد القطّ، فهو عذب الحضور، وينام أقلّ من غيره، لكنّه يرى خلال نومه من الأحلام ما يكفي غيره لشهرين أو ثلاثة. إنّه يرى أحلاماً زاهية، فردوسيّة، خرافيّة. يستيقظ دائماً على عطرٍ سماوي، وسرعان ما يفوح أريج مملكة أحلامه السعيدة على من حوله.

نحّيت كناشي مبتسماً للقطّ.

– هات. سولف؟

– شفت في المنام، غزلان الندى شايلة مع ضوّ الفجر، سألتني: وين يا مسهّل؟ قلت ع القصيلة. أخذتني معها، صحّينا الدحنون الغافي، وصبّحنا ع وادي الغفر، وطرطشنا شتلات الدفلى بالندى، ومرّينا على خيمة الغجريّة، حملتها بين يدي وطرت فيها لشجرة التوت. قالت الغجريّة: اتركني بدّي نام. قلت لها: اشبع منك وارجعي نامي.

– شبعت؟

– أنا لا أشبع.

ضحكت، وسألته بشهيّة مفتوحة:

– خبّرني عن رغباتك؟

لمعت عينا القطّ بشوق عميق، وتنهّد قائلاً:

– بدّي كلّ شي، بَسْ كلّ شي. كلّ شي بسمع عنه نفسي أعيشه. انفتح سيل رغبات أجّاج في نفسي ولم يتوقف. لم أكن أدرك أنّ لديّ كلّ هذه الرغبات.

تنهّدت، وهمست للقطّ:

– نويت أطلع من السجن.

– كيف؟

– أستنكر الحزب الشيوعي الهدّام. وخلص.

– هو هدّام يا رفيق؟

ضحكت بمرارة، وقلت:

– في بلادنا مِشْ صاير له لا يبني ولا يهدم.

تثاءب القطّ:

– يا خسارة. وانسحب إلى فراشه.

يا خسارة. وازنت بين مكسبي الذاتي، وخساراتي العامّة؛ أحترم حزبي، وأحبّ رفاقي. في الجامعة دافعت عن مبادئ حزبي، وزايدت على منتسبي التنظيمات الأخرى بمواقف قيادته الشجاعة، وتضحياتهم الباسلة في فلسطين والأردن.

هنا لا أحد يحفل بهذه «الترّهات».

كنت وما زلت قارئاً جيّداً، وحالِماً أُجيد تحويل خيالاتي كتابات ورسوماً نالت إعجاب زملائي وتقدير الكبار. حينما عرفت الحزب من خلال الرفيق موسى، لم أعثر على عَرّابي الذي يقرأني ويوجّهني فحسب، بل تعرّفت إلى منهج يلمّ شتاتي، ويمنح رسومي، وقراءاتي، وأحلامي، وتأمّلاتي معنى وحيوية ووهجاً.

في زنزانة المخابرات لم يحضر في بالي شيء من هذا، ولا فكّرت بالمادّية التاريخيّة، أو نظريّة فائض القيمة، بل حضرت حكاية الأمير الصغير التي كنت أنتحل مقتبسات منها لأدهش زميلاتي وزملائي.

إن كان في مكانٍ ما لا نعرفه، خروفٌ لا نعرفه، أكل أم لم يأكل الوردة، ما الفرق؟ لا أحد من الكبار سيفهم.

* * *

سعيد القطّ هو حقاً قطّ بالخفة، وسعيد بالفطرة. لم يكن وسيماً ولا مهمّاً، لكنّه عندما يعود من عمله مساءً، تشيع خفّته في القاووش جوّاً من البهجة. يدخل ومعه مواويله وحكاياته.

لمّا يغيب القطّ عن المهجع، تحلّ الكآبة مبكرة على نفسي.

ولماذا يغيب القطّ عن المهجع؟ لأنّ ضابط الخفر عاقبه وأنزله القبو. ولماذا عاقبه؟ لأنّه تسلّل إلى المنطقة المحرّمة عند الباب الخارجي.

ليست هذه أول مرّة يغيب فيها القطّ عن المهجع.

تسلّيت بالورقة والقلم. تناولت القلم المتاح، قلم الكوبيا 8 ، رسمت العصفور والقفص، الصّورة الأكثر سذاجة وعمقاً عبر التاريخ، ويعرفها الأطفال. لكنّي دفعت برأس العصفور خارج القفص. ومددت جناحيه ممزقاً الأسلاك.

ظللت أحدّق بالرسم الذي بين يديّ دون أن أضيف خطّاً واحداً.

أفتقد رائحة الياسمين. أفكّر بالجناحين، والطيران بعيداً عن خليط الروائح المزمنة في هذه المغارة الكئيبة: هل أستنكر الحزب، وأعلن ولائي للحكومة الرشيدة؟

ابتسمت بأسى: لو أنّها رشيدة لما حبستني.

لماذا لم أفعلها من أول يوم.

كيف سينظر إليّ القطّ، والختيار... ومدير السجن؟

هل سيحترمني مدير مخابرات إربد، وأنا أتقدّم له بورقتي، مثلما احترمني وهو يودّعني من دائرته. شدّ على يدي وكأنّه يقول: عافاك.

هل أخذل غصن الياسمين؟

هل أخذل أختي التي تفاخر بي بلا هوادة؟

مثالي ومعلمي الرفيق موسى. رفاقي الرّازحين بثبات تحت عسف الاحتلال الصهيوني في فلسطين. زملائي في الجامعة. أخي. أبي. وأمّي.

سأخذل روحي. ولن ينبت لي جناحان ما حييت.

تصير ورقة الاستنكار حاجزا بثقل باب السجن.

أيّهما أسهل: تحمّل الحياة المشروطة والمشروخة، أم تحمّل القاووش ورائحة كثافة بخاره الكريهة؟

لم أنم.

في الصّباح كنت أول من خرج إلى قهوة الطموني. وحيداً أحتسي قهوتي، وأقلّب وجهي في السماء بحثاً عن فضاء يتّسع لأسئلة دكناء الزرقة.

قطعة السماء الصّغيرة المعلّقة فوق السجن مشرّمة الحواف، منفصمة عن مساحات السماء الرحبة. لا، ليست هذه القطعة من السماء العامّة. إنّها رقعة غير متقنة في عباءة المدينة الواسعة.

محدوديّة المكان تفتح على سؤال الزمن. الزمن قنديلٌ زيته الحركة، وفتيله الإنجاز. حتى الجنّة لا تُطاق بلا إنجاز.

يقطع تأملاتي خروج القطّ من القبو. القطّ متعود على العقوبات. يخرج من القبو مبتهجاً. يفرد ذراعيه متمطّياً مستقبلاً نصف الشمس المطلّة عن السور. يفتح خياشيمه. يتنفّس بعمق، يمرّر أصابعه الطويلة إلى الخلف عبر شعره الناعم الطويل. يضيء. تتّضح معالم وجهه؛ عينان لامعتان. وجهٌ ناحل. أنف كبير مفلطح، فم واسع عريض الشفتين، هلالان جانبيان يرتسمان مع كلّ ابتسامة. أذنان ريشيتان مشنّفتان. ترتعش فتحتا أنفه وهما تتشهّيان رائحة شاي مغليّ مع السكّر.

أطلب له كاسة شاي، يضيف إليها الطموني ملعقتي سكّر. يضحك القطّ: أربعة يا طموني والرفيق يدفع. يرتشف القطّ الشاي بتلذّذ. يخرخش الشاويش حيدر بمفاتيحه، وينهره: يا الله يا قطيط بلا نياطة.

يتسلّم القطّ كيس العدّة من وكيل العهدة عند الباب الداخلي، ويمضي إلى عمله. فهو يعمل سبّاكاً، يصلح الحنفيّات، ويسلّك المجاري، ويصلح المعطوب من المواسير. وهذا ما يتيح له التجوال في دائرة أوسع من الساحة والقاووش. ويتيح له أيضاً التسلّل إلى المنطقة المحرّمة عند البوّابة الخارجيّة مع الغروب كي يمتّع نظره بمشهد المدينة وهي تنحدر من سفح التلّ باتّجاه شارع فلسطين، ثمّ تتمدّد أحياؤها الجديدة صاعدة على مهل باتّجاه الجنوب: المستنبت، جامعة اليرموك، القصيلة حيث شجرة التوت والدحنون يخضّب العشب بالحمرة حول عرزاله.

مساءً يتجمّع حوله المساجين ليحكي لهم تفاصيل يومه. يروي المشهد كأنّه حرٌّ في عرزاله؛ يتناول فطوره تحت شجرة التوت المطلّة على وادي الغفر الأدكن الخضرة. يصف لهم ينابيع تسيل في ضوء القمر ماؤها فضّة، ويجعلهم يتنفسون هواءً نقيّاً يوقظ الحواسّ. وينقلهم إلى مضارب الغجر، ويغنّي لهم:

مرّين وما معهن حدا دادي
يمشن على قطر الندى والبرادِ

ياه قديش رقصنا وغنينا سوا! كنت أحبّها. كنت أعطيها ملحفة زرقا 9 بحالها.

ويختم قصّته ضاحكاً بصخب: هههههه. لا تسألوني كيف جبت المصاري.

يا الله. لقد خُلق للحريّة والأغاني. لكنّه لص، ووا أسفاه إنّه في السجن.

يصمت القطّ قليلاً، يشعر بالامتنان لمستمعيه، ثمّ يستسلم بعد ذلك للحزن تدريجاً، وينكمش داخل برشه، ويغفو.

* * *

توطّدت علاقتي بالقطّ، وجفوت عسّاف.

عسّاف يتوسّل إليّ لتمرير ألاعيبه التي لا تنضب. ويستغلّ قربه من الرفيق لتعزيز تقاريره للجهات الأمنيّة.

كنّا نعدّ الطعام في ركننا، ونتشارك مصاريفه (الختيار والشاويش وأبو حديد وعسّاف والشكّيك وأنا)، اعترض عسّاف على انضمام القطّ وشريكه بو زهرة إلى زمرة الشاويش، وقال:

– بو زهرة. آه. موافق. يجلي الصّحون ويشغل البريموس. أمّا القطّ، لأ. تبع مجاري. أقرف منه.

فرك الختيار أنفه المبجّل، وقال:

– هو أنظف منك.

قلت:

– طبعاً. سعيد القطّ يستحمّ يومياً.

لم يستسلم عسّاف، همس لي:

– ابن عمّي انت ما تعرف القطّ. اسألني أنا. القطّ ابن حرام. مقطوع من شجرة. لا والي ولا تالي. راسماله هالعرزال برّا، وسيخ تسليك المجاري جوّا.

– يا عسّاف، هاي المساجين قدّامنا. أولاد الحمايل والعشاير أكثر بكثير من أولاد الحرام في السجن.

– القطّ واشي ما تنبل بثمه الفولة. بكرة تقول يا عسّاف ما قلت.

ضحكت.

تنمّر عسّاف، وقال للقطّ:

– طول النهار غاطس بالمجاري. أنت لازم يسمّوك جرذون مِشْ قطّ.

ردّ القطّ مقهقهاً:

– عسّاف بيك من برّا طقشه طقشه ومن جوّا خرا محشي. قال لبّيس قال.

عسّاف شاب وسيم ذكيّ، حاضر البديهة، واسع الخيال، لقبه هنا اللبّيس، لأنّه أنيق الملبس؛ حذاؤه دائم اللمعان. ولثغته في حرف الراء أرستقراطيّة، توقع الطمأنينة في نفس السامع. كان في صباه يلفظ حرف الراء ياءً، لكنّه اكتشف أنّ حرف الغين ألين وقعاً على أذن السامع، وله سحره

الخاصّ. هذه المواهب الإلهيّة وظّفها للاحتيال على عباد الله. فهو من زاوية أخرى نصّابٌ مراوغ، وكاذب حاذق. وكاتب تقارير سريّة أيضاً. والأخيرة هي التي تجعل الشاويش أبو حديد يتساهل مع اعتراضه على قبول القطّ في مجموعة النخبة. نخبة المهجع الجنوبي طبعاً.

نعم، سعيد القطّ عصفور صريح، يغرّد أمام الشرطة بما يرى ويسمع دون تردّد، مخيلته واسعة في تأليف الوشايات ويجيد سبكها، لكنّ الرفيق الذي في داخلي يغفر له هذا النوع من الوشايات العابرة.

ضحك القطّ كثيراً لمّا رسمته بصورة نمطيّة: عصبة سوداء، وسلسلة مفاتيح كبيرة معلّقة في خصره، ومفكّ في يسراه. هل هو أعسر؟

ضمّ سعيد القطّ أصابعه ولفّها بحركة نصف دائريّة:

– أدير مسكة الباب، أو أدفع الشبّاك بإصبعي. إن فتح دخلت.

– وإن ما فتح؟

– لرجلك. (في الحقيقة هو قال كلمة أخرى.) غيره يفتح...

السجن ملجأ اللصوص المريح، ففيه يأخذون إجازة من العمل. لم تُسجّل على سعيد القطّ أو بو زهرة وزملائهما زلّة سرقة واحدة داخل السجن. ومع ذلك فإنهم يسجّلون أعلى نسبة هروب من السجون مستعينين بخفّتهم في التسلّل، وحنكتهم في فك المغلق.

بو زهرة لصّ عتبات؛ يسرق ما تيسّر عن العتبة، من الحوش، عن البرندة. يسرق الغسيل، يسرق شبشباً. يسرق ولو شتلة مزهرة من الحديقة (لهذا لُقّب بو زهرة) لكنّه أمهر ضرّيب شفرات في السجن، إضافة إلى مهارته في لعب الشطرنج.

قدّم بو زهرة جندياً على رقعة الشطرنج، فيما يروي لي بطولات زملائه العظام:

– القطّ هرب من السجن ذات ربيع ليسرق، ولما بذّر ما جنى، عاد طائعاً في أول الشتاء من تلقاء نفسه. سلّم نفسه للشرطة، وتوصّل معهم إلى تسوية حول قائمة المسروقات الطويلة في أدراجهم، وعاد إلى السجن. والسبّاح شيخ لصوص الأردن هرب أيضاً أكثر من مرّة، ومن أكثر من سجن. ولكنّه قضى فترة تقاعده يلعب الضامة في سجن عمّان المركزي حتى وفاته.

حرّكت فيلي بمواجهة ملك بو زهرة بحركة ظننت أنها قاضية، واستدرت أسأل القطّ عن حادثة هربه، فاحمرّ وجهه حرجاً، وتلعثم.

– كش يا رفيق.

أنهى بو زهرة زهوي بحركة لم أكن أتوقعها. حمى ملكه بحصان، محاصراً ملكي. بلا تبجّح أنهى دور الشطرنج لصالحه. وتابع روايته:

– سعيد القطّ فهيم، تظاهر بألم في الكلية اليمنى، وظلّ يراجع الطبيب، ويصف له أعراض حصوة الكلية بدقّة حتى حوّله إلى المستشفى. ألصق حصاة بخاصرته، ظهرت في صورة الأشعّة

وسط الكلية. أدخلوه المستشفى، ففرّ من شباك الحمّام.

إنّهم أوفياء، ويتحدثون باحترام عن زملائهم. والمساواة بين اللصوص أمر يبعث على الدهشة... أيّاً كان مستوى تعليمهم، ومهنهم، ومصائرهم، واختصاصاتهم؛ فإنّه لا يتكبّر لصٌّ على لصّ بحسبه ونسبه، أو بمستواه التعليمي. التعليم ليس إلزاميّاً عندهم. والمستوى التعليمي لا يمنح اللصّ أيّ أفضليّة على الإطلاق، بل الأفضليّة للخبرة، وهم يمتازون بحريّة تبادل المعلومات والخبرات، ويعرفون القوانين التي تخصّ مهنتهم أفضل من القضاة.

موظفو الدولة المختلسون محرومون من اللقب. لأنّهم – حسب القطّ – يعملون، ولهم رواتب شهريّة، والسرقة عندهم عمل ثانوي من باب الطفاسة، ودناءة النفس.

على غير عادته لم يغنّ القطّ موّالاً هذا المساء. ولم يروِ تفاصيل يومه بطريقة فكاهيّة. ولمّا سأله جلساؤه كالأمسيات الأخرى: هات. قُصّ. ماذا رأيت اليوم؟ أجاب: ولا شي.

ونام.

بعيد منتصف الليل استيقظ، وكنت منغمساً بقراءة كتاب «أصل العائلة» لأنجلز.

زحف مقترباً منّي:

– صاحي يا رفيق؟

زجرته برفق:

– فكّني من أحلامك يا سعيد.

– مِشْ حلم يا رفيق. شي عن حق وحقيق.

– كلّ أحلامك تسولفها كأنّها صارت عن جدّ.

همس بإصرار:

– قصّة ما بقدر أحكيها لغيرك.

– احكيها لقلم الشرطة.

غام وجه القطّ، وبدا عليه ذلك الحزن الذي يكوّره كمخدّة. أشفقت عليه، فوضعت الكتاب جانباًوتنهّدت قائلاً:

– احكِ، تفضّل.

همس القطّ على عجل:

– امبارح دخلت سجن النسوان.

وانتظر ابتسامة إصغاء منّي. ثمّ تابع:

– كالعادة ضبّت مليكة خانم السجينات بغرفتهنّ. ورجعت لمكتبها. عند باب الحمّام فكّ الشرطيّ كلبشاتي.

وضعت قبضتي تحت حنكي، وأصغيت للقطّ.

– اللذة المزبوطة يا رفيق لما أتذكّر اللي صار. كأنّي هناك كنت مِشْ فاضي. كلّ حالي كانت غرقانة باللذة. أمّا... مِشْ عارف أشرح لك. اللذة المزبوطة بتصير بعدين. لما تعيد الفلم.

– الفلم؟ مِشْ فاهم عليك. احكِ على مهلك.

– دخلت الحمّام أسلّك المجاري. لما فتحت المنهل فارت ريحة حامضة. أنا متعوّد. الشرطي سدّ الباب عليّ وشعّل سيجارة. قلت له افتح ريحة شخاخهن تخنق. قال لي: يعني ريحتك كالونيا.

ما علينا. لقيت حالي لحالي بالغرفة اللي يستحممن فيها. كان بالزاوية بريموس يهدر عليه سخّان مي يغلي، وبخاره يملا الغرفة. بالزاوية فيه حيطة ناصية على بابها برداية مشمّع. تحرّك المشمع... فركت عيوني حتى أقشع. شفت مرة واقفة وراء الحيطة. بالأول لمع قدّامي بز. فكّرت حالي بحلم. فركت عيوني، وقرّبت. انذعرتْ. طمّ البزّ ورا الحيطة. قرّبت أكثر، وشفت... شفت خصلات شعرها سود مدلية على وجهها، وتنقط مي. صدرها مليان. حلمتها نافرة مثل حبّة نبق. دخت. رحت ما أقع من طولي. تطلّعتْ إليّ مستريبة منّي. كنت بدّي أقول لها: جاي أسلّك المجاري. لكنّها أشطر منّي. وقفت، ورفعت إصبعها على نصّ شفتها. وهمستْ: لحالك؟

راحت يدي تلحمس جلدها. ارتجف حنكها لما مدّيت راسي من فوق الحيطة. لسعتني شفايفها الرطبة. غبيت فيهن. زاحت المشمع وفُتّ. صارت تفور فور ياخوي. جسمها طري وساخن. مثل حبّة دراق ذايبه. يمكن عمرها ثلاثين. يمكن أربعين. مِشْ مهم. شعرها يجنن؛ ناعم وطويل. وعيونها تضحك. تفتحت مثل وردة. ما ظلّ براسي غير ريحة صابونها ووشيش البريموس. الشهوة تطوي كلّ شي بعسلها. عبطتها وما تردّدت... مدت يدها وطلّعته، مسّدت ظهره على مهلها. عنتر. ركعتْ ولقفته بتمّها. رقبتها سكّر. آذانها ينقرشوا قرش. شفايفها براطم تشبع. وقفت ع طولها. التفت الساق بالساق. تزحلقنا. صرت فوقها. ما ظلّ بيني وبينها غير رغوة الصّابون تبقبق. الصّابون مع العرق على بشرتها زبدة وعسل. صدرها لحاله يكفي أحلامي لتالي العمر. ظهرها بيدر. بطنها مثل بطن القطّة. من الزنّار وتحت مليانة أكثر من فوق. يا خوي لما دعرته فيها. لقيته سخن وذايب مثل حبّة القطايف المرنّخة بالقطر. قريب وبعيد. غميق ولذيذ. شدّتني بكلّ حيلها وتموّجت. أنا دبيت الصّوت وهي صارت تشهقْ. اندفق عسلنا. ودار فينا الحمّام مثل دولاب الهوى.

صار وشيش البريموس ينوس وذبنا رغوة. انضبيت بحضنها وصرت انتفض. سحبتْ فوقنا المشمع الرطب. وغفيت. غفيت كأنّه ما فيه شرطي ع الباب ولا سجّانة بالحوش. نسيتهم. نسيت السجن. نسيتكو. كانت هي وأنا وريحة عرقنا. حسّيت بالأمان. لما طابت نفسي. ووشوشتني: شو اسمك؟ قلت: سعيد. لكن ينادوني القطّ. ضحكت: قطّ؟

بستها وباستني...

– وانتي؟

– كرمة. وهون اسمي دحنونة.
– دحنونتي.
وضحكنا ناسيين حالنا وين. وانتبهنا على صوت الشرطي:
– ما فتحتْ يا قطّ؟ (يقصد المجاري.)
قمنا. قرقعت بسيخ التسليك تمويه، وقلت:
– لا. معصلجة.
انطفى البريموس. راحت غيمة الشهوة، فاحت ريحة الكاز والسناج والصنّة. لمّت هدومها ولاذت ورا الباب.
فتحت الباب. بهرتني الشمس. فطنت أني بالسجن. صرت أرمش، وصورتها تروح وتجي.
قال خفيري:
– شو شكلك فت كلّك بالمجاري.
صاحت مليكة خانم من مكتبها:
– كلّه تمام؟
ظليت ساكت. حتى ما حسّيت بالكلبشات لمّا شدّهم الشرطي على زنودي. حملت عدّتي، وطلعت. ما فيه براسي غير صورتها. لو اني برسم مثلك لرسمتها كلها. حتى شامتها عند الإبط، والوحمة اللي تحت سرتها، وبصمة تطعيم الجدري على ذراعها. لكن فيه شي ما ينرسم يا رفيق: ريحتها. يعني. كيف؟ مِشْ ند وريحان. ريحتها. قصدي ريحة جلدها. مِشْ كلّ واحد منّا إله ريحة غير؟ ريحتها علقت بخشومي ما تنمحي.
شاعت قصّة كرمة والقطّ في السجن.
أقسمت للقطّ أنّني لم أفش سرّه.
وضع القطّ يده على كتفي مطمئناً، وقال ضاحكاً:
– المنحوس عسّاف كان نايم ومِشْ نايم. طز. ما يهمّني. هههه.
وشوش السجناء بعضهم بعضاً مكمّلين نقص الحكاية. فرُويت القصّة بنسخٍ مختلفة، كلّها تعتمد على التفاصيل الجنسيّة حسب خبرة الراوي، أمّا الحادثة فتباينت أشكالها حدّ التناقض. صارت الحكاية فيلم السجن المفضّل الذي يخرجه كلّ سجين على هواه.
انفرد أبو حديد بالقول: حكاية كرمة من أولها لآخرها كذب، وشطحة من شطحات القطّ.
لكنّ كرمة غذّت أحلام المساجين السريّة بصور لا تنضب. ما عدا المسكين بو زهرة.
حرّكت جندياً أبيض في وسط الرقعة، ولم يحرّك بو زهرة ساكناً.
– وين سارح يا بو زهرة؟
ترقرقت عينا بو زهرة بالدمع، وهمس:

– ليلة امبارح استحلمت يا رفيق.

ضحكت:

– كرمة؟

– يا ريت.

– استحلمت بولد؟

غصّت الكلمات في حلق بو زهرة، ثم قال بحسرة:

– حلمت أني أمرج.

– وين المشكلة؟

انخرط بو زهرة في البكاء، فلملمت أحجار الشطرنج، وقمت أمشي معه في الساحة.

فهمت منه أنّه وعى على أمّه تتذمّر نهاراً، وتتأوّه ليلاً، وماتت وهي تلد. ولما شبّ عن الطوق قَتل أبوه أخته لأنّ أحداً ما نام معها...

لم يمارس الجنس في حياته لا مع امرأة، ولا مع غيرها، فهو يعتبر الجنس إيذاءً للطرف الآخر! وهو لا يستطيع أن يؤذي نملة. المسكين تنحصر خبرته العدائية بتشطيب جلده بالشفرة إذا غضب. وتنحصر خبرته الجنسية في الاستمناء فقط.

– على ايش تستحلم؟ شو تتخيّل يا بو زهرة؟

مسح دمعته، وقال بمرارة:

– حمارة. فرس. نعجة.

– وكرمة؟

– كلّ ما اسمع اسمها أشعر أني مش زلمه يا رفيق.

وانخرط في البكاء.

صارت كرمة كلمة السرّ التي تواطأ النزلاء على إخفائها عن مسمع خالتهم الحكومة رغم كثرة العصافير: وشاة ومخبرين وكتبة تقارير على اختلاف انتماءاتهم: المخابرات. الأمن الوقائي. إدارة السجن. الأمن المركزي. مكافحة المخدرات. أنا، الرفيق، لم أفش هذا السر للحزب أيضاً

بعد حكاية كرمة، علت مكانة القطّ في المهجع، وانضمّ هو وتابعه بو زهرة إلى الصّفوة، وصارا يأكلان معنا على مائدة واحدة.

همس عسّاف حانقاً:

– سفلة.

جامله بو حديد قائلاً:

– كلّ الناس سفلة، وكلّ واحد يغطّي سفالته بشطارته.

تظاهر عسّاف بالاستكانة. وتنكّدت من هذه المقولة أيّما نكد.

[1] إشارة إلى رواية « Le Petit Prince». تأليف الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري.

[2] أي أنّه ينتمي لحزب التحرير الإسلامي الذي أسّسه القاضي تقي الدين النبهاني في القدس عام 1953.

[3] الزقرط هو نوع من الدبابير الصغيرة تشبه النحل، وهنا تعني المساجين الذين لا يُرجى خيرهم، ولا يُخشى شرّهم.

[4] على يمين المدخل يمتدّ شبك الزيارة على شكل قفص مستطيل حيث يقابل المساجين زوّارهم وقوفاً على جانبي شبك الحديد.

[5] شبك الزيارة جدارٌ بارتفاع متر وعرضه ثلث متر، تعلوه قضبان حديدية إلى السقف لا تسمح إلّا بمرور اليد للمصافحة.

[6] في مسرحية غاليليو لبرتولد برخت، يقول التلميذ: ويلتاه على الوطن الذي لا ينجب أبطالاً. يردّ عليه غاليليو: لا، بل قل يا ويلتاه على الوطن الذي يحتاج إلى أبطال.

[7] الكُنّاش: لكن المساجين هنا يلفظونها بالفتح وبلا تشديد، وهو لوح خشب رقيق مربّع أو مستطيل ملازم لكلّ نزيل، يستعمله كطربيزة شخصية للشاي والقهوة وصحن الطعام، وعندما يسنده إلى ركبتيه يصير منضدة للقراءة والكتابة. قال ابن الرومي: لا تعذلوه فإنّه رجل يروي من الطبّ ألفَ كُنّاش.

[8] قلم الكوبيا هو «قلم المَرْس»، من ضروريّات السجن، يُستعمل لطباعة نقوش المنسوجات الخرزية، ولكتابة اسم أو وَسْم السجين على أغراضه الخاصّة لتثبيت ملكيته لها. ويُستعمل مسحوقه للوشم.

[9] ورقة العشرة دنانير الأردنية.

الفصل الثاني
الوشم تحت الجلد

اليوم كان صيفياً بامتياز. فُتحت الأبواب على أمل صدور عفو ملكي عن السجناء بمناسبة عيد الاستقلال. وحصلت بادرة تؤجّج المشاعر بقرب الفرج. بعد تمام العدّ النهاري قرقعت سمّاعة السجن بأسماء 142 سفيراً من موقوفي المحافظ ليتجمّعوا في الساحة. بعد الإفراج عن ثلث المساجين تنفّست الممرّات، وتبدّلت مواقع المساجين: ارتقى بعضهم إلى مواقع أفضل، وتمتّع آخرون بمدّ سيقانهم إلى مداها أثناء النوم. لكنّ يوم الاستقلال مضى، وتلته أيّام التشويق الثلاثة، وبدأت إشاعة العفو الملكي بالتبخّر.

في هذه المسافة القصيرة بين إشاعة عفو وأخرى ينتاب المساجين شعور حادّ بالغبن، وكأنّهم سُجنوا من جديد. شعر الرفيق بخيبة مريرة، وكأنّ العفو الملكي المأمول يخصّه وحده. ظلّ يتقلّب على جمر الأسئلة: لماذا أنا هنا. لماذا أنتم هناك؟

مع تسلّل خيوط الفجر إلى المهجع كان قد اتّخذ قراره.

«أنا شجاع. مثلما تحدّيت التحقيق وملحقاته، أستطيع تحدي الاستنكار وتبعاته.»

كتب الاستنكار بخطّ جميل في وسط صفحة بيضاء بحجم A4، وذيّله بتوقيعه وباسمه كاملاً، والتاريخ الهجري والميلادي، ونام قرير العين.

استيقظ منتصف النهار عند صفارة العدّ النهاري. سحب الورقة التي كتبها، قرأها على مهل، دسّها بين أوراقه، واقترح على نفسه أن يسلّم الاستنكار لإدارة السجن صباح الغد.

قبيل المغرب عاد القطّ من عمله، اغتسل، وجاء إلى قهوة الطموني ضاحكاً:

– شو ساكتين مثل اللي قابرين غالي. ههه قبرتوا إشاعة العفو؟

قال الختيار:

– يعني انت ع راسك ريشة يا نصّ نصيص.
– هههههه.
شفط القطّ كاسة شاي محلّاة على دفعات متتالية، وأخذ بيد الرفيق:
– تعال يا رفيق شوف عرزالي بالقصيلة.
واصطحبه إلى البرزخ بين الشبك الداخلي والبوابة الخارجية.
سرّح نظره بعيداً عبر قضبان البوابة الواسعة.
– شوف مغيب الشمس... هناك ورا العرزال يا رفيق.
منظر باهر حظي به الرفيق، منظر لن يزول من ذاكرته أبداً. كانت الشمس طبقاً أحمر واسعاً يغوص ببطء خلف تلة القصيلة الموشاة بالعشب اليابس وظلال الغروب. شعاعٌ ناعمٌ مُغبر ينفذ من خضرة شجرة التوت... العرزال يبدو نقطة داكنة أسفل نصف الدائرة الحمراء لقرص الشمس.
نهرهما الشرطي المناوب. وطلب منهما الدخول إلى الساحة. اشتبك القطّ مع الخفير بملاسنة طويلة، حتى يتسنى للرفيق مشاهدة مغيب الشمس كاملاً خلف المدينة.

* * *

التجربة المرّة تصير شجيّةً إذا كُتبت بمداد الحاضر. الزمن طويلٌ تحت وطأة العزلة، قصيرٌ إذا نظرته ملموماً في كفّ الذكرى.
طال النهار، وقصر الليل، وتعوّد الرفيق صوت مؤذّن الجامع المملوكي كلّ صباح، وطنين جرس كنيسة الروم كلّ أحد، وتعوّد المثول في طابور الخمسات للعدّ النهاري، والوقوف والجلوس للعدّ الليلي، وانتظمت زيارات أمّه له، وعطّلت المدارس، وكفّ طلاب الثانويّة عن المرور من عند السجن. ووفدت الفلّاحات غرب شباك القاووش لبيع القثاء واللوبياء والباميا، وتناهت إلى المساجين نداءات الباعة على البطّيخ والشمّام والتين. وظلّ رجال البلدية يقلبون البسطات كلّما قلّت الإتاوات. وظلّت الشمس تشرق وتغرب كلّ يوم، والرفيق يقلّب ورقة الاستنكار كلّ ليلة، ويعيدها إلى مكانها، وكأنّه ينتظر مناسبة ما ليتقدّم بها...
بعد جولة القيام والجلوس امتثالاً للعدّ المسائي؛ تحلّق المساجين حول موائد العشاء. مسح بو زهرة فمه براحة يده، وقال:
– خلّصنا عشانا والشمس بعدها ما غابت.
جحره أبو حديد وهو يلوك لقمته مصدراً مضغاً يشبه من يمشي في الوحل:
– جق. جق. جق.
أوقف الختيار اللقمة قرب فمه، وقال:
– وعدونا يمدّدوا الفورة لأذان المغرب. الحاج ملقي ذات نفسه وعدنا، وبحضور مندوب الصّليب الأحمر.

قال هاشم وهو يجمع فتافيت الخبز بورع:

– ضابط الخفر يهمّه العدد، ويلمّ المفاتيح، ويرتاح ع بكير. ونحنا نُزرب من العصر مثل الدجاج.

قال الشكّيك بصوته الواهن دائماً:

– ع كيفهم؟ هو نحنا عبيد عندهم...

سحب عسّاف منديلاً ورقياً بالإبهام والخنصر من جيبه، وقال:

– إذا وعد المدير لازم الضباط يلتزموا.

قال بو زهرة وهو يلمّ نوى الزيتون، والصّحون الفارغة:

– حاكمك لاكمك. شو بدنا نسوّي.

قال هاشم وهو ينسحب إلى برشه:

– بكرة المسا لما يرنّوا جرس الدخول ما ندخل.

همس عسّاف:

– اش لا حدا يسمعك ابن عمي. هذا تمرّد. والله يطخّونا.

طبعاً، سمعه من حوله، وتحولت الفكرة إلى همسات سرت سريعاً بين المهاجع.

صباحاً خرج هاشم يحتسي القهوة مع الختيار عند الطموني. صار يبتسم له مساجين بالكاد يعرفهم، وشجعانهم يمرّون بموازاته فيضمّون قبضتهم إلى جانبهم ويرفعون الإبهام تشجيعاً.

يبدو أنّ تلك «الإش» سرعان ما وصلت إلى الإدارة: الرفيق يقول ما حدا يدخل المهاجع عند المسا.

وانتشر التحريض بسرعة عجيبة بين المساجين...

أصبحوا يتحرّكون بحذر وتوجّس، وينظر بعضهم إلى بعض بعيون تفيض بأسئلة مبهمة مغلّفة بالصّمت. الشرطة يحملون عصيّهم، ويتصرّفون بخشونة، وأجبروا بعض المعفيّين من الطابور على ترك أشغالهم والاصطفاف. حتى سكّان الدار البيضا خرجوا واصطفوا في الساحة.

طابور العدّ النهاري الذي يتمّ بعد الغداء في الساحة أنعش رغوة الهياج، وعزّز التحدي.

أوجس هاشم خوفاً، وتراقصت ركبتاه. بعد تمام العدّ، طلب مقابلة الحاج ملقي اتّقاءً للأسوأ. قال له الضابط المناوب بجلافة:

– الحجي مجاز. شو بدّك؟

لمع ذلك العرق تحت الترقوة، موقظاً الذئب في داخله.

بلع مخاوفه، وقال للضابط بجفاء ومكر أيضاً:

– مِشْ شغلك.

ارتبك الملازم عطا الله قليلاً، وعاد بلهجة أقلّ حدّة:

– أنا أقوم بمهام المدير، إذا عندك شي احكي.

تركه الرفيق حائرا، ومشى.

قُرع جرس المساء.

هذه اللحظة الفاصلة محيّرة، مثل شرارة تومض، تشعل الروح بما يشبه الهوس؛ فتتلاشى الحسابات والتوقعات، وتترك اللحظة المشحونة تقطّر في الروح خمرتها الخاصة.

قال هاشم بوضوح وحزم:

– ما حدا يدخل يا شباب.

سرى الطلب الهادئ وكأنّه أمر يخصّ كلّ المساجين، ويخصّ كلّ سجين على حدة أيضاً.

خفت ضجيج السجن، وهدأت قرقعة الطربيزات البلاستيكيّة الصّغيرة المنتشرة عند قهوة الطموني. وفار المساجين إلى الساحة. حتى أولئك المساجين الذين كانوا مشغولين بالإعداد لوجبة العشاء خرجوا إلى الساحة.

كرّر عطا الله نداءه عبر مكبّر الصّوت: مآمير ضبّوا المساجين.

ردّدت حارات السجن صدى صافرات الشرطة.

– مأمور الجنوبي. مأمور الشمالي، مأمور الشرقي، مأمور الدار البيضا، مأمور الأحداث... ضبّوا المساجين.

صافرات الشرطة النزقة تعلن نهاية الفورة، والمآمير يأمرون السجناء بالدخول إلى مهاجعهم. لكنّ السجناء لم ينضبّوا.

أعلن جرس السجن النفير، فخرج مآمير السجن الخمسة من الساحة، وأغلقوا باب الشبك الداخلي للسجن.

«حرس السجن. نفير أول»، أعلن مكبّر الصوت.

استدارت الرشاشات التي على الأسوار نحو الساحة، وظهر الشرطة شاهرين أسلحتهم الخفيفة على السطوح.

انفعل المساجين، اكتظّت بهم الساحة الرئيسيّة.

وقف الرفيق على حافة البركة الصغيرة وقال:

– ما ندخل إلّا بعد أذان المغرب.

وقف الكرزم، شاويش المهجع الشمالي، على حافة حوض الماء، بجانب الرفيق. رفع ذراعه الموشومة بأفعى رقطاء، وقال مفخّماً حرف القاف:

– هاي قلّة حيا منهم، والله يا رفيق ما نفوت لو طخونا.

استدار القطّ نحو جمهرة المساجين الذين تكاثروا بسرعة في الساحة، وقال بصوت مرتفع:

– شباب الرفيق يقول ما حدا يفوت ع مطرحه.

زغردت امرأة في سجن النساء. ومزط بو زهرة فانيلته معرّياً صدره المشجّر بالندوب، وأشهر الزقرط شفراتهم كاشفين عن أذرعهم الموشومة 1 في إعلان جازم عن استعدادهم للتضحية بتشطيب جلودهم، إذا هاجمتهم الشرطة.

زال الارتباك عن الرفيق لما رأى كلّ المساجين يستجيبون للتحريض، ويتجمّعون في الساحة. حتى السيد ترانزستور، والسيد حشيش خرجا من الدار البيضا، ووقفا عند حوض الماء، ثم جاء حشيش باسطاً كفّيه أمامه ورافعاً كتفيه، قال لهما:

– نحنا شو خصنا. يصطفلوا.

ودخل ثلاثتهم إلى غرفتهم البيضاء.

طال صمت مكبّر الصّوت، طال الوقوف في الساحة، الترقّب عند المساجين وعند الشرطة بلغ مداه.

بدأ عسّاف موجة التذمّر:

– شو بدنا ننام برّا الليلة؟

قال القطّ ضاحكاً:

– وماله؟ زمان ما شفنا القمر والنجوم.

قال أبو حديد:

– والله لا نشوف نجوم الظهر. هذا عصيان.

شعر الرفيق بسحابة الخوف تنقشع من داخله على مهل، وتشرق روحه بفرح مثل ذلك الذي كان ينتابه بعد كلّ جولة تحقيق. قال بصوت مرتفع:

– شباب ما حدا يدخل إلّا عند أذان المغرب.

ضاع صوته في الأصوات المتداخلة والآراء المتضاربة.

صاح وطوط شاويش المهجع الشرقي بصوت مرعوب:

– يا الله ندخل يا شباب.

ماجت ساحة السجن بالارتباك، وتضاربت الاقتراحات. في هذا الوقت المائع كاد الاعتصام يفسد، لولا مبادرة الشكّيك.

أخذ الشكّيك يد الرفيق بيمينه، وأمسك يد الختيار بشماله، وقال:

– نحنا قاعدين هون اللي بده يفوت يفوت. تبعهم القطّ وكرزم وبو زهرة.

جلس غالبيّة السجناء في دوائر متداخلة.

فرح هاشم، واستكانت نفسه كأنّما يجلس على المسطّح الأخضر في جامعة اليرموك. تذكّر قيادته لمظاهرة صاخبة تضامناً مع انتفاضة الجليل في آذار العام الماضي، ردّاً على مصادرة الاحتلال آلاف الدونمات من الأراضي في شمال فلسطين.

فتح أبو حديد فمه الذي يشبه فوهة الشكوة، وصار يلهث مثل كلب عطشان، ومنخاره العريض يفتح عروتَيه ويغلقهما بعصبيّة، لكنّه لم يجلس، ولم يدخل إلى المهجع. ولم يقل شيئاً.

الذين لم يجلسوا على الأرض ظلوا يحومون متردّدين في أطراف الساحة إلى أن أذّن المغرب.

حينما أنهى المؤذّن رفع أذان المغرب، تغامز الثلاثة الجالسون عند البركة، فقام الختيار والشكّيك، ثم تبعهما الرفيق، ودخلوا مهجعهم دون أن يقول أحدهم شيئاً.

تبعهم المساجين يتسلّلون إلى مهاجعهم مرتابين.

وتنفّس الجميع الصّعداء.

أكبر الرفيق وقفة زميله بو ليلى الشكّيك وكأنّه يعرفه اليوم.

الشكّيك استمدّ لقبه من غموض القضيّة المسجون عليها: دفع شيكات بدون رصيد. هل هو نصّاب مع سبق الإصرار والترصّد؟ أم أنّ سوء التقدير والحظ العاثر أوقعاه في الشبك... وضعه ملتبس وعصيّ على التصنيف. هو غامض. سَكُوت. لا يتبرّم من شيء وكأنّه مولود هنا. من الصّعب التكهّن بما يدور في خلده.

الآن يتذكّر هاشم لماذا ارتاح لسحنة الرجل الخضراء بمجرّد أن رآه... إنّه نسخة من وجه أستاذ الكيمياء الذي درّسه في ثانويّة إربد، يذكر أنّه كان معلّماً مرحاً، عندما يريد أن يوقد الشعلة في مختبر الكيمياء كان يقول: هات ولعة يا ولد، ثم يضحك: نصّكم يدخن بالسرّ. لازم واحد معه كبريتة. فيسارع أحد الطلاب لإيقاد الفتيلة. وسرعان ما عرف أنهما توأمان!

لا يتحدث الشكّيك عن نفسه، ولا عن غيره. بل لا يتحدّث إلّا مضطرّاً، يتحدّث بصوت واهن يكاد يمحو من ذاكرة هاشم ضحكة شقيقه المرحة. لعلّ هذا الغموض ما دفع المساجين لإطلاق لقب الشكّيك عليه دون غيره من الشكّيكة النصابين أو الساذجين. فالناس يتعاملون أحياناً مع ما أُشكل عليهم بتغليفه بعنوان واضح، لترويضه ربّما، أو للنكاية به. هكذا مثلما نضع على زجاجة لا نعرف ماهيتها، ولا مزيج محتوياتها؛ ملصقاً يقول «الزجاجة».

من جهة أخرى، منحه هذا الغموض مهابة خاصّة وضعته في مصاف شيوخ السجن.

الشكّيك يبدو في الخمسين من العمر، هو طويل بائن الطول. ليس بديناً ولا نحيفاً. شاربه أسود كثّ، عالي الجبهة، أجعد الشعر. يميل وجهه للخضرة، يضع دائماً نظارة قاتمة على عينيه. باهت المشاعر. قليل الانفعال. بعد الاعتصام صارت صورته أمام الرفيق أكثر بشاشة وشباباً وحماسة، وبدا في نهاية العقد الثالث من العمر.

داخل المهجع ظلّ التوجّس جاثماً على الأنفاس. اصطفّ طابور طويل أمام المبولة الداخليّة. لم يشعل أحد بريموس، ولم يكلّم أحد جاره، ولا فتح صاحب دكّانٍ صندوقه. ففي كلّ مهجع دكّانان:

1 - البقالة وهي صندوق خشبي له قفل صغير يحتوي على بضع علب من الفول والحمّص والسردين والتونة والحليب المكثف والبسكويت، وباكيت أسبرين للصداع، وعلبة فملكس يسهّل

المعدة.

2 - دكان الخرز: كيس بلاستيك كبير فيه أكياس صغيرة تحتوي على خرز صغير بألوان مختلفة، وكيس فيه خيطان، وآخر فيه صنّارات، وثالث إبر وميابر، ورابع للكشتبانات. تضاف إليها لوازم الوشّامين: أقلام كوبيا، كحل، صمغ، حزم إبر رفيعة وطويلة، ورق شمعي لرسم الوشم قبل طبعه على الجلد، فصناعة الوشم من المهن المربحة في السجن. أمّا المسابح والأطواق والمنسوجات الخرزيّة فهي مصدر رزق محترم؛ يبيعونها للزوّار، ويرشون بها الشرطة، ويشترون بها مواقع أوسع لأبراشهم.

بعد أذان العشاء، دخل المآمير لعدّ المساجين. تمّ العدّ المسائي بهدوء. بدأت النفوس باستعادة توازنها، وشيئاً فشيئاً دبّت الحيويّة في المهجع، وارتفع لغط خفيف ما لبث أن تصاعد مختلطاً بفحيح البريموسات التي هدرت تنضج الطعام، وتغلي الشاي.

نام المساجين كأنّهم صرعى. ربّما هاشم وحده من كان يتوقع حدوث شيء جلل. وكان حدسه صحيحاً.

بعيد منتصف الليل دهم الأمن المركزي 2 المهاجع مسلّحين بهراواتهم وكلبشاتهم.

كان هاشم لا يزال يقظاً يداري وساوسه بتصفّح الكتاب الثاني من «تاريخ الجبرتي» لمّا خشخش قفل الباب.

انتبه. وقف مستنفراً من حوله:

– قوموا. أجونا.

وسرعان ما بطحه شرطيّان مقنّعان. لفّا ذراعه بعنف إلى الخلف. ربط أحدهما عصابة على عينيه، فيما ركبته تضغط على ظهره، وتكاد تقطع أنفاسه، وثبّت آخر الكلبشات في معصميه. ولم يعد يشعر بما حوله.

صحا هاشم من إغماءته مقلوب الحال. تقيّأ. أسعفته أشباح لم يستبن إلّا هسيسها. وانتعش قليلاً. سمع ضحكة القطّ وهو يقول:

– القبو منوّر بضيوفه.

فحّ صوت الشكّيك:

– كيف صرت يا رفيق؟

قال:

– جوعان.

قال الكرزم:

– وأنا حموت جوع.

توقف القطّ عن النطّ، وقال:

– يخسا الجوع.

أزاح حجراً في عمق القبو. مدّ يده في العتمة وأخرج قرطاساً به كمشة زيتون، وكسرات خبز يابسة. ثمّ انطلق إلى زاوية أخرى، فأحضر قنّينة بها ماء ووضعها أمام ضيوفه، وجلس يوزّع كسر الخبز وحبّات الزيتون، كأنّه المسيح في العشاء الأخير.

قال هاشم:

– ياه، في حياتي لم أذق أطيب من هذا الزيتون، ولا ألذّ من كسر الخبز اليابس هذا. لمّا ألوك القضمة تذوب بطيئاً متحولةً إلى سكر. ثم أتبعها رشفة ماء عطنة فتصير اللقمة لذيذة سلسة البلع. كلّ شيء بحساب لقمة الخبز. رشفة الماء. التنفس. الندرة سرّ المتعة.

يااه ما ألذّها من وجبة كافأنا بها القطّ!

قام القطّ يتمايل مثل خيال الظلّ ويغنّي:

يا مين يرجعني صغير وياخد مالك يا دنيي
أوف أوف أوف وارجع إكبر ع الهدا

سرت عدوى البهجة بينهم، فاصطفّوا حول القطّ يسحجون الدحيّة، حتى الختيار تحمّس وقام يسحج معهم، والقطّ يحوشي بالوسط برشاقة وخفة.

هويدا ويدا لك يا هويدا ويدا لي
يا حلوة يللي ع الجبل ظلّي اضحكي وتدلّلي

هههههه.

فرطوا من الضحك. الضحك العالي الذي يرفع قبّة القبو الصّخريّة عالياً، ويستدرّ دمع القلب الصّافي.

قال كرزم:

– الله يكفينا شرّ هالضحك، ويعطينا خيره.

قال القطّ:

– ويعطينا غيره.

قال الشكّيك وهو يشرق بضحكته:

– كان لازم يسمّوك كناري أو بلبل.

ردّ القطّ مترنّماً:

– واغنم من الحاضر لذّاته، فليس في طبع الليالي الأمان.

ظلّوا يسخرون من الحاضر ولذّاته، يضحكون ويثرثرون حتّى الصّباح. لا يدرون أيّ وقت من الصّباح. لكنّ باب القبو فُتح مواراباً، وأطلّ طعام الفطور: بلوك خبز، وحفنة زيتون، وثلاثة أكواب شاي... تناولها القطّ وقسّمها بينهم بصفتهم ضيوفه...

ازدردوا طعامهم واستسلموا للنوم. ناموا كأنّهم صرعى.
لمّا لكزه القطّ ليصحو لم يدرك الرفيق أنّه في القبو. تذمّر واستدار متابعاً نومه.
همس القطّ:
– اصح يا رفيق. اصح.
– هممم. شو يا قطّ. لا تنام ولا تخلّي حدا ينام؟
صحا. شعر بأنّ جسمه مهدود، حرّك أطرافه بحذر.
– فيق يا رفيق. قم. أرضيّة القبو رطبة، والنوم الطويل عليها مِشْ كويس لعظامك.
نظر حوله بدهشة، رمشت جفونه ليعتاد العتمة. وقف يحرّك ساقيه، فاضطرّ للانحناء قليلاً لأنّ سقف القبو قريب وغير منتظم.
– تعال هون عند الباب. الرطوبة أقلّ. قال القطّ.
جلس بجانب القطّ، وأسند ظهره إلى الباب الخشبي المشقق.
– بدّي أقول لك شي.
ضحك هاشم:
– شو... فيه دحنونة هون؟
ضحكا.
– بدّي أقول لك شي يا رفيق.
ضحك:
– شو فيه؟
– شايف الحجر اللي كنت مخبّي وراه الأكل؟
قال هاشم:
– الحجارة مثل بعضها.
القبو عبارة عن مغارة صغيرة، جدارها المقابل مسدود بحجارة منتظمة.
ضحك القطّ:
– تفقدتها، شو وراي، على إيش استعجل. لمّا تزحزح حجر سحبته. احزر شو لقيت؟ خفض صوته أكثر: لقيت سرداب.
هتف هاشم مندهشاً:
– سرداب؟ لوين يوصل؟
– زحفت. بعدين خفت اختنق ورجعت. يعني أوله كنت أزحف على بطني. صار أوسع، تقدر تمشي فيه وانت مقرفص، بعدين صرت اركض وظهري محني.
– وبعدين؟

– خفت، ورجعت.
– تفكّر بالهرب يا صديقي؟
– دايماً أفكّر بالهرب.
لمعت بذهن هاشم فكرة: ليس مشهد القصيلة عند الغروب هو ما يجذب القطّ للتسلل إلى المنطقة المحرّمة عند الباب الخارجي. بل الرغبة في دخول القبو. هنا تكمن الخطة. كان يهمس لي أنّ السجين المحترم ينبغي أن تكون لديه خطة للهرب، وإن كانت مستحيلة.
هنا يستكشف القطّ طريقه إلى الفضاء يوماً بعد يوم حتى تكتمل الخطة. من هنا يرى حرّيته. يرى عرزاله ودحنونه وشجرة التوت.
شعر بخيط نور رشيق ينعش زهو الياسمين في صدره.
– بدّي أهرب معك يا سعيد.
ضحك القطّ، وقال:
– متأكد؟
– من السرداب؟
– لا من الباب.
– أيّ باب؟
– الباب الرئيسي.
شعر كأنّه يحاول تضليله: قطيط. لا تسرح فيَّ.
ضحك القطّ:
– كلّ القصّة وما فيها؛ لما يتعوّدوا يشوفوني بالمنطقة المحرّمة، يبطلوا ينزلوني ع القبو. آه. ولما يتعوّدوا يشوفوني هناك يبطلوا ينتبهوا.
– ولمّا ما ينتبهوا؟
صفن هاشم:
– حيّرتني يا قطّ.
اقترب القطّ هامساً بأذن هاشم:
– يلزمنا مغناطيس قوي.
– بتسرح فيّي يا سعيد؟
– المغنطيس يفتح لنا باب السجن يا رفيق.
– يا سلام!
– قلت لك تعوّدوا عليّ أقف عند الباب البراني.
– بلشنا تخويث!

– يا رجل المغناطيس الزقه بقفا القفل يفكه. يجذب لساناته لورا...
– بلا هبل.
– انت بتفهم. المغناطيس يجذب الحديد يا رفيق.
فُتح باب القبو مصدراً صريراً. تناول القطّ من حارس القبو قصعة ألمنيوم بها أرز تغشاه بضع حبّات من الفاصوليا البيضاء، وإبريق ماء بلاستيكيّاً كان في يوم ما أخضر اللون. تناول الكرزم إبريق الماء. زنقح قليلاً. تمضمض. ثمّ مدّ يده اليمنىوصبّ عليها قليلاً من الماء ومسح وجهه. تناول الشكّيك الإبريق واستدار إلى الجنوب. وهمّ بأن يتوضّأ. سارع القطّ فأمسك الإبريق.
رفع الشكّيك حاجبيه مستنكراً.
قال القطّ:
– المي تكفي.
قال كرزم:
– ضروري الصّلاة واحنا على هالحال؟
استدار الشكّيك إلى الحائط فطبطب عليه براحتيه مثيراً بعض الغبار المعتم، ّثمّ صلّى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً.
هذه أول مرّة يتناول فيها الطعام من مطبخ السجن. لكنّ الجوع أمهر الطبّاخين. صار الأرز ينقص، وظلّت حبّات الفاصوليا البيضاء تتدحرج من جهة إلى جهة. كلّ واحد منهم يوفّر التلذّذ بها لزملائه.
وزّع بو ليلى الشكّيك حبّات الفاصوليا بينهم بالتساوي.
قام الكرزم ضاحكاً:
– المثل يقول اصطبح ومدّ وافلح. تغدّى وتمطّى. تعشّى وتمشّى.
قام يمشي هو والقطّ في المساحة المتاحة أمام عتبة الباب.
لكلّ قبضاي وشمه الخاصّ. كرزم وشمه الأفعى. وهي الشيء الوحيد الممطوط على جلده، أمّا ما بقي فكلّ ما فيه مربّع؛ رأسه مربّع، وجهه مربّع، أنفه مربّع. وهو مربوع القامة، متين البنية كأنّه قُدّ من حائط. حنطي البشرة، شعر رأسه مثل كومة مسامير صدئة، له شارب أشعث كفرشاة مستعملة، جفن عينه اليمنى المتهدّل يوحي بالمكر.
القطّ لامع العينين، شعره طويل ناعم، يحفّ لحيته وشاربيه ويصبغ شعره بانتظام. يبدو وهو ابن الستين أصغر من كرزم الذي لم يجاوز الثلاثين من العمر.
القطّ يمشي صامتاً. الكرزم يتمتم بلعنات دارجة، ختمها بسؤال زميله القطّ:
– وين سارح يا سعيد؟ مزاجك اليوم مِشْ مثل امبارح؟
لم يجبه القطّ، بل كتّف ساعديه، وتربّع قدّام الشكّيك، وقال:

– عللنا يا بو ليلى.
ضحك الشكّيك. ربما كان ممتنّاً للقطّ لأنه ناداه بلقب نادراً ما ينادى به هنا، وقال:
– فيه حدا يحكي وانت موجود؟
تنحنح الختيار، وقال للكرزم:
– اقعد يا رجل، حولتنا وانت رايح جاي.
جلس كرزم، وقال:
– إذا فاتتك المدارس عليك بالمجالس.
عقد القطّ يديه على ركبتيه، وراح يقصّ:

كان يا ما كان. كان فيه قرية اسمها اليونان.
أهلها شاطرين ويفهموا، ما خلوا شي ما سألوا عنه، وكتبوه.
ربّهم اسمه زيوس، وكان فرحاً بعلمهم، ويباهي بهم أرباب القرى البعيدة.
لكنّهم زادوها، وحطوا راسهم براسه. وقالوا: مين انت يا زيوس؟ ليش أنت ربّنا؟ بدنا نعرفك.
فقام زيوس لبس زيّهم، ونزل يتحدّاهم.
صادف شاب أول طلعته، يعني قدّك يا رفيق. سلّم عليه، وسأله: صحيح انت تعرف كلّ شي؟ قال الشب باستضراط: تفضّل اسأل. سأله الرب: هل تعرف وين زيوس؟ تطلع الشب لفوق، ونظر لتحت. رفع عيونه بالزلمة اللي قدامه، وقال له: دورت بالسما ما لقيته، وفتشت ع الأرض ما لقيته. الرب واحد من اثنين يا أنا يا أنت. غضب الرب، وحط كفه تحت القرية اللي أحبّها، وقلب عاليها سافلها. تهدّمت مبانيها، وطارت أوراق أهلها بالهوا. ووصلت القرى البعيدة. قرأوها الناس، وتعلّموا منها.
من يومها كلّ الفهم اللي بالدنيا أخذوه الناس من الورق اللي كتبوه اليونان.

تنحنح هاشم، وسأل القطّ:
– انت قرأت أرسطو وأفلاطون يا سعيد؟
لم يجب.
ساد الصّمت. وراح هاشم يفكّر: من أين أتى بهذه القصّة؟ هل هو قارئ جيد، أم هي مجرّد حكاية برتها الألسن حتى وصلت إلى هذا القبو الترابي على هذا النحو؟
توسّد الختيار حذاءه، وتمدّد. حذا الآخرون حذوه. وناموا. الوحيد الذي وجد نفسه هنا حافياً بلا مخدّة هو هاشم.
يشعر هاشم بأنّ هذه العصبة من البشر الخطّائين تمتلك القدرة على التضامن، والمزاحمة، والصّمود، أكثر من النخب المثقفة، والأحزاب المقموعة.
الشكّيك هادئ بطبعه، لكنّ غموضه تكشّف عن رجل شجاع، مبادر. ذي قوة كامنة. كرزم محكوم سبع سنوات بقضيّة سطو: كسر وخلع، لكنّه ثعلب حذر. متربّص. صديقي القطّ رائع وهو

يحطم ببساطة طفل كلّ ما يفرض إطاراً لروحه. الختيار يمسك عصا التوازن بمهارة...

في هزيع من النوم أحسّ هاشم بدفء جسد في حضنه. صحا على الكرزم يتلوّى دافعاً ظهره نحوه. شعر بحرج بايخ، واستدار بجسمه جهة الشكّيك. الشكّيك يغط في نومه بعمق. ما لبثت المسافة بينه وبين الكرزم أن تلاشت. كتم أنفاسه البيض، بل انكتمت أنفاسه توجّساً، هل الكرزم يتقصّد ملامسته؟

التصق ظهر الكرزم بظهر هاشم وشعر بيد زميله تمتدّ وتعبر وسطه باحثة عن... هل يحلم الرجل؟

فزّ هاشم هاتفاً:

– كرزم.

استيقظ الختيار:

– خير فيه شي؟

كان كرزم قد انزاح قليلاً متكوّراً على نفسه. وبدا كأنه يغطّ في نوم عميق.

بلا تفكير مسبق هتف الرفيق:

– كلب.

لم يقل الختيار شيئاً، فرد فردتي حذائه، وأشار للرفيق أن ينام بينه وبين القطّ. لفّ فردة حذاء الختيار بقميصه، توسّدها وتمدّد. لم ينم.

يتساءل الرفيق: هل الكرزم لوطي؟ لم يشع عنه ذلك. رغم أنّ هذه الإشاعة تلاحق الكثيرين من النزلاء من كافة المستويات والأعمار.

سبق أن سمع هاشم عن وسائل استدراج المستجدين للغواية: يغري اللوطي طريده المستهدف بملاطفته، ويسمح له، بل يغريه بأن يلحمس على مؤخرته حتى ينتعظ، فيداعب العُتُل عضو شريكه بحنكة حتى يفيض، ثم يطالبه بردّ الجميل. وهكذا خطوة خطوة حتى يصطاده في ملعبه.

ثمّة سلوكيات يحاكمها العقل. فيرفض أو يتفهّم. يدين أو يبرّر. ينذر أو يعذر؛ وعلى الجسد أن ينصاع. وثمّة أشياء يشعر بها الجسد فيكبت ويتظاهر، أو يبحر في مسار آخر معانداً العقل والمعقول.

للجسد سلطانه إذا أشار أو رغب أو تعب، وله غواياته إذا رقص أو انتشى أو طرب. وللجسد حدسه بالمسرّات، وتوقه للتحرّر، وغلوّه في الانفلات. لولا أنّ العقل لجام.

هل الجسد من طين حقير، والعقل من نور مبين؟ هل الجسد معصية، والعقل معرفة؟

معرفة العقل ناعمة يسهل خدشها ونسيانها، ومعرفة الجسد نقش معجون بالرغبات، مدعوك بصخب التجارب.

ولسرٍّ ما يُعاقب الجسد بجريرة العقل. فقد تُسلَّط عليه لسعات السياط، وقد يقضي سنوات في ظلمة السجن. ذلك أشبه بالساحر الذي يهوي بهراوته على جسد الممسوس لطرد الجنّ.

الجسد متسامح حنون. دائماً يغفر زلّات العقول، ويتحمّل الأذيّة، ويقبل تحمّل المرض والحرمان والسجن، لكنّه في لحظة ما ينسحب من اللعبة للأبد، ويتركنا معلّقين في الفراغ.

عدّل هاشم فردة الحذاء تحت رأسه. فرد جسمه محملقاً بشفافيّة العتمة. إنّه يحنّ إلى مخدّته. يحنّ إلى برشه. يفتقد همهمة وغطيط المساجين في المهجع... آه ما أسرع ما تضيق الرغبات.

يقطّر القبو برد الهزيع الأخير من الليل فيذكّر الجسد بالدفء. بالضبط دفء جسد قريب. دفء القطّ وهو يتململ.

انقلب على جانبه مديراً وجهه باتّجاه الختيار. نصف وجهه غائر في فردة الحذاء. النصف الثاني غارق في الهدوء.

جسد القطّ الناحل يتمدّد على بعد سنتمترات قليلة. بودّه لو يقترب. يتأمّله بمحبّة. شعر بخلايا جسمه تتوق للاقتراب أكثر. استيقظت شهوة خمريّة داخله. رغب بدفئه. اكتست أنفاسه بزغب أحمر. وكاد يزحف باتّجاه القطّ. في لحظة وميض أزرق، انقلب إلى الجهة الأخرى باتجاه الختيار. أغمض عينيه. استحضر قصّة كرمة. بلّل كفه بلعابه. نفض سمّهُ. وغفا.

* * *

لم يدخل الشرطي لهم طعام الإفطار، بل قال: تعالوا... اطلعوا.

طلعوا. غابو ا ليلتين عن السجن وشؤونه؛ لكنّ أشياء كثيرة تغيّرت.

تحقّق مطلبهم؛ وصار المساجين يأوون إلى مهاجعهم عند أذان المغرب.

تبدّلت اللافتة المربّعة السوداء على باب السجن المكتوب عليها بخطّ الرقعة «سجن إربد» بآرمة زرقاء كبيرة مستطيلة مكتوب عليها بخط النسخ:

المملكة الأردنيّة الهاشميّة/ مديريّة الأمن العام/ مديريّة مراكز الإصلاح والتأهيل/ مركز إربد للإصلاح والتأهيل.

علّق الختيار محتجّاً: «إيش يعني؟ إحنا معاقين... إذا مستعرّين من كلمة سجن يسمّوه بيت الخالة. مِشْ لما يسجن واحد يقول عنه الناس راح لبيت خالته».

دخل السجن نزلاء جدد. وأُفرج عن آخرين؛ دخل السجن قبضاي اسمه أبو القناني سبقته سمعته إلى هنا، وأفرج عن الشكّيك فجأة.

هل سدّد شيكاته التي بلا رصيد؟ لعلّ دائنيه أسقطوا حقهم؟

لم يُعرف سبب الإفراج المفاجئ عنه.

أُحيل الحاج ملقي على التقاعد، وحلّ محله النقيب عطا الله بيك لإدارة السجن... ترفّع الشاويش حيدر إلى وكيل ضابط، ونُقل إلى مديريّة السير، وتسلّم البوّابة الداخليّة الشاويش يونس.

صار مصيص شاويشاً للمهجع الشرقي بدل وطوط. وانتقل عسّاف شاويشاً للقاووش الشمالي بدل الكرزم، وظلّ أبو حديد محتفظاً بمربّعه الذهبي في الجنوبي.

عوقب كرزم بالجلد في وسط الساحة لأنّه قال: تبدّلت غزلانها بقرود.

وتقرّر نقل الرفيق من الجنوبي إلى الغرفة البيضاء.

* * *

اجتاز هاشم ظرفتين خشبيتين خفيفتين، تعلوهما مظلة من الزينكو، الباب طُلي بالأبيض تمييزاً له عن باقي أبواب السجن السوداء ذات المحور الواحد.

يا للترف.

لكنّ الرفيق ليس مرتاحاً بانتقاله إلى هذه الغرفة. يشعر كأنّه نُفي إلى جزيرة نائية.

زملاؤه الأفنديّة والبهوات السبعة لا يرحّبون بوجوده بينهم... انشغلوا عنه بمتابعة التلفزيون الصّغير، امتيازهم الخاصّ الجالس على رفّ خشبي مثبّت في الحائط الغربي بجانب الباب.

بعدما فرد برشه، تشاغل عنهم وعن تلفازهم بتقليب صفحات كتاب البدوي الملثّم عن عرار دون أن يقرأ حرفاً.

وششش. وششش. وششش.

انقطع البثّ.

خلال فاصل اعتذار عن خلل فنّي على الشاشة الصّغيرة، تنحنح شاويش الغرفة المدعوّ حشيش، مضيّقاً عينه اليسرى، وسأل:

– شو صرت موالي للحكومة يا...

رفع الرفيق عينيه عن الكتاب، وسأل بعبط:

– أيّ حكومة؟

– هيء هيء هيء.

ضحك الرجل، وقال:

– الحكومة اللي حكمتك عشر سنين.

وضحك الجماعة شامتين.

تنحنح علاء الدين ملبورو، وسأل ساخراً:

– بتفهم في السياسة؟

قال الرفيق بجديّة:

– شو الموضوع اللي يهمّك؟

فتأتأ ملبورو مرتبكاً، ودارت عيناه بمحجريهما حيرة:

– السياسة. مِشْ انت معتقل سياسي؟

علّق أبو زكي كناري:

– في جزر الكناري ما حدا يهتم بالسياسة. خمر ونسوان وفتّ مصاري. هناك ما فيه سياسة.

تبرّع سامي ترانزستور بإكمال الحوار، دفع وسط نظارته بسبابته، وقال بجديّة:

– شو رايك بمؤتمر جنيف 3 ؟

أجاب كتلميذ يقظ:

– فلسطين يحرّرها النضال ما تحرّرها المؤتمرات.

علّق معاليه هازّاً لغده الوردي:

– شاطر والله.

فضحكوا مجاملة لمعاليه.

أبو جميل المهندس، أو أبو جميل الماصورة، وهو أحد خرّيجي موسكو الحمراء، يقال إنّه كان شيوعياً متطرّفاً هناك، لكنّه ينكر ذلك ويستنكره، قال وهو يمسح شعره الذي بلون الألمنيوم:

– لكنّ الاتحاد السوفييتي العظيم هيء هيء، موافق على مؤتمر جنيف.

ردّ الرفيق:

– وانا مالي. لكنّه شعر بالحرج في داخله وكأنّه مسؤول عن السياسة الخارجيّة للاتحاد السوفييتي.

هتف أبو زكي كناري مادّاً ذراعه إلى مداها باتجاه تلفزيونه المنشغل عن هذرهم بوشيشه:

– بدنا نظلّ نستنّى. قوم يا ولد حط ع الشام.

قام خادمهم «الطج» يبحث عن محطة الشام تحت وابل من إرشادات المشاهدين.

يشعر الرفيق بحرج مبهم، لا يرغب أن يصير ثامنهم. بالضبط هو ليس ثامنهم، هم ستّة وخادمهم. موقعه هنا بين السابع والثامن. بينه وبين عتبة الباب ثامنهم: الطج.

كلّ مكان يشتقّ رائحته الخاصّة، رائحة الزنزانة بول ودم. رائحة السجن سناج ودي.دي.تي، رائحة القاووش فساء بشري وبصل مقليّ، رائحة القبو تراب معتّق وعطن الرطوبة، رائحة الدار البيضا تبغٌ وشحم حيواني.

الغرفة مربّعة الشكل. مسقوفة بالخشب. لها شبّاك شرقي. وخزانة غائرة في الحائط الجنوبي. أمامها باحة صغيرة في زاويتها الشماليّة مرحاض ومغسلة وحنفيّة ماء مزروعة بجانبها شتلة ريحان، ونبتة سجّادة خمريّة اللون. في الزاوية الأخرى جرّة ماء، ونتوءات حجريّة توضع عليها أدوات الطبخ.

ربّما بسبب هذه الإضافات سُمّيت مجازاً الدار البيضا.

ليلته الأولى في الغرفة البيضاء أرق.

تجافيه المخدّة.

لمّا سمحوا لأبيه بزيارته في مبنى المخابرات، قالوا له: ابنك شيوعي كافر. قال لهم: كافر... هاي لربّ العالمين يحاسب عليها. شيوعي؟ هاي سياسة. انتو واياه تصطفلوا عليها، لكن اليد اللي تتمدّ على ابني بكسرها.

توقفوا بعد هذه الزيارة عن ربط رسغيه بكوة باب الزنزانة. بل كفّوا عن الإيذاء الجسدي دفعة واحدة.

هل الثقل العشائري يخفّف ثقل القاووش؟

هل يحاولون عزله عن جمهرة المساجين؟

هل يرمون إلى تجنيده مع العصافير؟

في المنام رأى نزلاء الدار البيضا على هيئة ضبّاط أمن يتحلّقون حول مائدة كبيرة، يتداولون في أمره وهو في الوسط مثل جنرال ماركيز في متاهته. صحا مكتئباً جافّ الفم. قام يشرب ماءً. باب الغرفة مفتوح على ضوء القمر. القمر يضيء هواجسه بشراسة، فيهرب للتحديق بتفاصيل الساحة وهي خاوية.

جنوباً نافذة المطبخ. إلى جانبها مهجع الأحداث. شمالاً القاووش الشرقي، أو قاووش المهرّبين. وهو أوسع، وأحدث مهاجع السجن. يقال إنّه بنيَ بعد أيلول الدامي عام 1971.

الضلع الشمالي من السجن يتكوّن من الحمّامات والمغاسل والمراحيض والقبو الذي تعلوه بوّابة طوارئ شماليّة صغيرة الحجم مغلقة دائماً. الواجهة الغربيّة تسند درجاً مكشوفا يشكّل مدخلاً خارجيّاً لإدارة السجن. والبوابة الجنوبيّة الضخمة بحجارتها الفخمة ونقوشها التي تعود إلى العصر المملوكي هي مدخل ومخرج المساجين وزوّارهم، وهي فخر دار السرايا وتاريخها العتيق.

مال إلى مخدّته الناعسة يفكّر. هل تَوَقّعَ سنان باشا وهو يصمّم مباني العثمانيين وقلاعهم واصطبلات خيلهم وسرايا ولاتهم، أنّها ستصير مهاجع للأحزان؟

توسّد مخدّته عنوة، وهمس: في الصّباح سأطلب من الإدارة إعادتي إلى مكاني في الجنوبي، وإلّا... وإلّا فسأتقدّم بالاستنكار. واخلص.

طلع الفجر، الوقت الشجيّ العزيز على النفس.

يخرج الأحداث 4 مدجّجين بمكانسهم الطويلة ودلائهم البلاستيكيّة، يغرفون ماء البركة ويشطفون الساحة، ثمّ يختفون فجأة. وقتٌ للصّمت. يا لجلال اللحظة. يحبُّ ساعة الفجر.

– هذه الساعة لي في هذا الجزء الصّغير من الكون، وما أتمنّاه الآن أن لا يعجّلوا بفتح الأبواب، حتى أنعم بمزيد من السكينة الصّباحيّة.

أشرقت الشمس. فرح بحزمة أشعّتها العابرة من فسحة في الشباك. توهّج مع ذرّات الهباء في حزمة الضوء الذهبيّة، وتبعها إلى حافة الشباك المُغبَرّ. أصغى إلى ضجيج استيقاظ المدينة. تشمّم الرائحة المازوتية لعوادم السيّارات التي تصعد التلّ تحت الشبّاك الشرقي.

وضع عينيه بعين الشمس.

حرّريني أيّتها الشمس من ترف الغرفة البيضاء. خذيني أيّتها الحرّة مع شعاعك المنسحب إلى فضائك الشاسع. رمية نرد دارت بالأرض دورتها هذا الصباح لترمي حزمة شمس على مخدتي.

يا أنت. أيتها الشمس التي لا ينضب نورها، أفرح هذا الصباح بحزمة أشعتك. أتوهج مع ذرات الهباء في حزمة شعاعك كي أتبعك.

ما من أحد سواك قادر على انتشالي خفية عن أعين الحراس.

أنهت الشمس زيارتها القصيرة لنافذته. سحبتْ آخر خيوطها الذهبيّة، ودبّت الحركة في باحة السجن. خرج إلى قهوة الطموني.

– أحلى فنجان قهوة للأفندي.

– ما بدّي قهوة يا طموني. بدّي شاي.

«الأفندي»... لم يُطربه اللقب الجديد، واستعجل ارتفاع الشمس كي يتمكّن من محو هذا اللقب عنه.

ذهب إلى البرزخ بين الشبك الداخلي والباب الرئيسي. طلب من الشاويش يونس مقابلة المدير الجديد وعاد. ناوله الطموني كاس شاي طازج وساخن. شربه على مهل، شربه على طريقة شرب الزقرط؛ شفط منه شفطات طويلة متمهّلة: يفففف، وأتبع كلّ شفطة بتنهيدة: إحححح، لكن هذه الحركة لم تقرّبه منهم. قام يحوم الساحة أفنديّاً مُنبتاً غريباً عن المساجين الذين غادرهم، منبوذاً من نخبة السجناء الذين حلّ بينهم، حتى استدعاه عطا بيك.

عطا بيك رجل جهم. مكوّر الرأس. أكرت الشعر. له أنف ملموم، وفم صغير، وعينان عاديتان؛ لكنّ هذه التفاصيل ضائعة في سمرة وجهه الشاسعة. حقاً إنّ وجهه مثل قفا صاج الخبز.

قال البيك بلا مواربة:

– نقلناك للدار البيضا مشان تعقل.

تحسّس هاشم ورقة الاستنكار المطويّة في جيبه، وقال:

– لكنّي مرتاح في الجنوبي.

كأنّه لم يسمع. كان متحمّساً لمهامّه الجديدة. راح يثرثر مستعرضاً أسلوب إدارته الحديث الذي ينسجم مع مفهوم الإصلاح والتأهيل:

– المساجين عندي سواسية كأسنان المشط. ما فيه عندي كبير غير سيدنا. اعتصامات وإضرابات ونمردة ما عندي. الرحمة تخصّ والغضب يعمّ. وغمز بشكل غير مباشر من إدارة الحاج ملقي: سياسة دقة ع الحافر ودقة ع المسمار أخذها الحجي معه الله يسهل عليه. زمان أوّل تحوّل. إدارة الدقة القديمة انسوها. وختم حديثه بقوله: اختر الدار البيضا أو القبو؟

اختار هاشم بلا تردّد:

– القبو.
جحره البيك جحرة وطنيّة عارمة، جعلها قاسية قدر الإمكان. وهتف:
– فشرت! أنا قراراتي ما تنزل الأرض.
قرع الجرس. حضر شرطي مخطوف اللون. أدّى التحيّة، وتهيّأ.
قال عطا الله:
– كلبشوه، وأعيدوه إلى الدار البيضا.
نام ليلته الثانية في الغرفة البيضاء مكلبش اليدين. لكنّ مخدّته صارت حنونة، تمدّدت شجيرة الياسمين يانعة خضراء في روحه، ونام بعمق.
قال لنفسه: لا أحد يا رفيق سيصدّق أنك كنت تعود من ساحة التحقيق إلى زنزانتك مدمّى وسعيداً، إلّا من عاش التجربة...
لا أحد سيتفهّم فرحك بأساورك الليلة إلّا مخدّتك.
في الصّباح، توافد المساجين يتفرّجون على نزيل الدار البيضا المكلبش!
خرج الرفيق وجلس في الباحة الخارجيّة للغرفة مقابل زير الماء. جاء بو زهرة يتأبّط صندوق الشطرنج الذي لا يفارقه. سلّم عليه، وصار يبكي.
عسّاف غضب غضباً شديداً:
– يفضح خواتهم أولاد شغموطة. ليش يكلبشوك؟
وهدّد بأن يشكوهم لعمنا الباشا.
وطوط، شاويش الشرقي المعزول شدّ على ساعده، وقال مؤازراً:
– ولا يهمّك. شدّة وتزول.
لوى كرزم شفته السفلى غاضباً، وقال:
– بسيطة. الجايات أكثر من الرايحات.
جلس الختيار بجانبه دون أن تكفّ أصابعه عن ختم آخر غرزة في قلادة الخرز، وقال:
– نقلوك حتى تتعوّد. خليك جدع. ثمّ قدّم طوق الخرز إلى هاشم: هديّة منّي.
قلادة في غاية الدقة والإتقان. منسوجة بالخرز الملوّن الناعم بتدرّجات قوس قزح.
قال هاشم:
– ولكن..
لم يقل ما يفكّر به. ما حاجتي به؟ لمن سأهديه؟
– الهديّة ما تنردّ يا رفيق.
جامل الختيار بتأمّل ما صنع.
سأل الختيار ماذا يقصد بقوله: إيّاك وتعوّد السجن؟ ضحك الختيار. ثمّ تنهّد متحسّراً:

– الواحد منّا لا يتعلّم إلّا من وجعه. والعصر، إنّ الإنسان لفي خسر.

أحبّ هاشم الختيار.

الختيار محكوم مؤبّد، أمضى عشرة أعوام، وبقي عليه عشرة. يقول إنّه كان مضطرّاً لقتل الرجل. وبدا هذا الاضطرار مقنعاً للرفيق اليوم أكثر من أيّ وقت مضى.

رغم أنّه من وجهة نظر العدالة قاتل مع سبق الإصرار والترصّد. إلّا أنّه عقل راجح. ورجل كريم.

عند الضحى قطع القطّ عمله، وجاء إلى صديقه.

المفارقة بين نزيل الدار البيضا المبجّل، والعيّل المكلبش مثل الزعران؛ فيها من الطرافة ما أضحك القطّ حتى وقع على الأرض هامساً: هذا البيك مهستر. ثمّ انزوى إلى جانب الرفيق، وهمس له: أبو حديد قال «باعنا الرفيق». لكنّ الختيار بهدله. ثم خرمش صوته مقلّداً الختيار: وحّد الله يا زلمة... الكرزم علّق على جيتك للدار البيضا بقوله «ناس عزّ وناس معزى».

ضحك الرفيق:

– فُكْني يا زلمة من القال والقيل. روح لشغلك أحسن ما يبهدلوك.

قال القطّ:

– أشعل لك سيجارة؟

ضحك، وقال له:

– اسقني.

رغم نظرات ملبورو المستنكرة، ذهب القطّ إلى جرّة الماء، وداعب نبتة الريحان بكفّه حتى فاح عطرها، ثم غرف ماءً وعاد. شرب هاشم فيما القطّ يفرك كفيّه، ويتنسّم رائحة الريحان.

– تحبّ الريحان؟

– أحبّ كلّ شي ينحبّ. لكن أحبّ الدحنونة أكثر.

– طبعاً. مين أغلى من كرمة؟

– ههه. أنا قصدي الدّحنون ما غيره.

– الدحنون؟

– الدحنون لون واحد، أحمر أو أحمر. الدحنون زاهي ومتواضع. يطلع وين ما كان: بالسهل، بالجبل، بالحارات، ع السناسل. إن قطفته يذبل، وان تركته يكثر. عمرك شفت حدا زارع دحنون، أو يبيع دحنون؟ هههه عمرك شفت دحنون محبوس بغرفة، أو مربوط بباقة؟ الدحنون حرّ.

ضحك هاشم:

– قطّ وفيلسوف؟

ردّ القطّ بمرح:

– قطّ وحرامي. قطّ وسباك. قطّ ومهرج. قطّ وعاشق.
قاطعه ملبورو ساخراً وردّد على نغم الإيقاع:
– قطّ وعصفور.
ضحك القطّ:
– يا ريت أصير عصفور. وأطير.
تدخّل الطج:
– قصده مخبر. يعني عصفور من إيّاهم هاهاها.
انكمش القطّ بجانب هاشم كمن أصيب بسهم.

* * *

أثار قرار البيك المتسرّع تعاطف المساجين مع الرفيق؛ بقدر ما أثار نزوله الدار البيضا جفوتهم بالأمس. لكنّ وضعه صار أكثر غربة بين زملائه السبعة في الدار البيضا.

نظمي حشيش كان ضابطاً كبيراً في مديريّة مكافحة المخدّرات، سُجن لأنّه حرق البضاعة (خسارة ع البلد هههه..... بضاعة بالآلاف تروح حريق). وهو هنا يحبّ أن يدخّن النرجيلة مساء وهو يمشي. فكان يسير في ساحة السجن وخلفه خادم اسمه الطج يحمل له الشيشة يبقبق بها الماء المطعّم بأوراق الغار، وينفث الدخان بغطرسة تليق بجنرال. يخفي صلعته بكوفية وعقال، ويرتدي دشداشة بيضاء تداري كرشه البيضوي، ويحمل سبحة زرقاء فاخرة تلائم وجاهته، ويتلهّف على أيّام عزّه بأن يداوم على انتقاد «شرطة هالأيام». موضوع انتقاده اليوم هو الرفيق. شدّ خيط مسبحته فانتصبت مشيرة نحو الرفيق. كيف يكرّموا واحد لا عنده ولاء ولا انتماء، ويحطوه بالدار البيضا!

سامي ترانزستور، حجمه ترانزستور، وحذاؤه ترانزستور، ونظارته ترانزستور. وصليبه الفضّي على صدره ترانزستور. ما عدا شاربه الأشقر، فهو كثّ وعريض. كان موظفاً في دائرة ضريبة الدخل، يصنّف نفسه بعثياً، فقط لأنّه خرّيج العراق، لذا فهو يهتمّ بالشأن العام، ودائماً يرفع عند أذنه راديو ترانزستور بحجم الكفّ، وموقفه ضدّ الرفيق أيديولوجي وليس شخصياً.

سأله هاشم: شب جامعي بأول طلعتك لسه ما عركتك الحياة شو مورّطك بالرشوة؟

– يا أخي والله ما كانت بنيتي، ولا مفكّر فيها، لكن رحت أنا وواحد من عتاعيت الدائرة نقدّر ضريبة الدخل عند تاجر كبير. ونحنا طالعين، قال التاجر: هات مفتاح سيّارتك. قلت: ما عندي سيّارة. قال: أعطني عنوان بيتك. أعطيته. فكّرت براديو. مكوى كهربا. تلفزيون في أحسن الأحوال. لما روحت، وأجا الطرد، لقيت فيه خمسة آلاف دينار. سخسخت. اشتريت سيّارة وتلفزيون وثلاجة. وظلّ معي شوي. بعدين صرت أروح ع التجّار أطلب بلساني.

قاطعه ملبورو:

– دخلك شلون توظفت بضريبة الدخل؟ على علمي البعثيّين مثل الشيوعيّين والتحريريّين ما يوظفوهم، وتحجز جوازات سفرهم.

صمت، ولم يجب. زادها عليه، وأضاف:

– إلّا إذا صرت تشتغل عند الجماعة.

لكز سامي طرف نظّارته بظاهر كفّه المضمومة، وفتح فمه ليقول شيئاً. ثمّ بلع الملاحظة، وصمت.

هنا أيضاً شيوعي سابق هو المهندس أبو جميل الماصورة. وهو خمسيني طويل نحيل أسلت، ذو رأس مثل دورق ألمنيوم لامع، يحفّ ذقنه وشاربه ليبدو أصغر سناً. هل يشبه الماسورة؟ ربّما.

المهندس متّهم بالاختلاس والتواطؤ مع شركة خاصّة في صفقة مواسير لسلطة المياه، أمّا روايته هو فكانت تتلخّص بـ: يا رجل نَقّص المورّد كم ماصورة – يلفظها بالصّاد – حبسونا احنا.

المهندس كان مهتمّاً بالبرستيج. نظر إلى معاليه بتزلّف قائلاً: هزلت. صاروا يجيبوا عندنا من هبّ ودبّ.

أمّا الجمركي السابق السيد علاء الدين ملبورو فهل اتضح سبب سجنه؟ أبرز ما في وجهه فمه الممطوط للأمام وكأنّه ينفخ على شيء ما. وفوق هذا البوز أنف حادّ طويل، وتحت البوز ذقن حادة، وتحتها تفاحة آدم تكاد تقفز من رقبته النحيلة الطويلة. حقاً طلّته تشبه حرف دبليو على باكيت الملبورو. أمّا سبب نكده: ما فيه وسع يا بو نظمي. غرفة كلها أربعة متر بخمسة متر. شو؟ غرفتنا صارت قاووش...

ثمّة رجل أربعيني، يبدو دائماً مستحمّاً للتوّ، فهو مسؤول الحمّام هنا، لكنّه غير أنيق في ملبسه. جاكيت مربّعات على دشداشة مدعوكة، أو بنطلون وقميص وقرافة بلا جاكيت، سترة بسحّاب على سروال كاكي. صلعته دائريّة تماماً مثل طاقيّة. له سكسوكة متصلة مع شاربه وتتلاءم مع شكله الدائري. وهو دائم الابتسام كسمسار يستثمر البشاشة. كان يعمل سمساراً – وما زال – باع أرضاً لا يملكها في عمّان الغربيّة، صرف ثمنها متنزّهاً في جزر الكناري، وعاد ليقضي عقوبته سنة في السجن. مقايضة حسبها سلفاً، وارتضاها ونفّذها بكامل رغبته. فاكتسب لقبه عن جدارة: أبو زكي كناري. يسجَّل له السبق بأنّه أول من أدخل التلفاز إلى السجن.

نظر إلى الرفيق، وكتفاه تهتزان من الضحك: هأ هأ هأ. يمكن بداركم ما فيه تلفزيون. يا الله تفرّج ع حساب الأجاويد.

معاليه يُلقَّب هنا بالتنبل، ولا يُستعمل هذا اللقب بحضوره، سُجن بتهمة إصداره وثيقة مزوّرة... ينظر إلى سقف الغرفة الخشبي مدوّراً شفتيه المكتنزتين الرطبتين مثل شقّي تينة ناضجة، ويرسل دخان سيجارته الكنت على شكل دوائر منتظمة. ويقول: والله كنت بفكّر حالي بقدّم خدمة لسيدنا، طلعت غلطة العمر.

لكنّه لا يفسّر أبداً ما هي الخدمة، وكيف حُسبت ضدّه غلطة لا تُغتفر.

دلّى لغده الزهري، وواصل نفخ دخان سيجارته مترفعاً عن تبرير اشمئزازه من حضور الرفيق.

رغم ما تقدّم، أو بسبب ذلك، تضافرت جهود نزلاء الدار البيضا بالضغط على صاحب أسنان المشط، فأمر بفك قيد الرفيق.

جلس على برشه مطلق اليدين. تناول قلمه الكوبيا، وتشاغل عن مبغضيه بالرّسم. هرب من سحناتهم المغمومة إلى وجوه أصدقائه الأليفة. صحبتهم العميقة تؤهّله لرسم طبائعهم.

أبو حديد متهوّر الطبع. رمّام. يضمر الشرّ بقلبه. كالضبع، إذا ردعته؛ يزعزع الفضاء بقعقعته. القطّ روح حرّة وجدت نفسها في قفص. أو قطٌ يحلم أنّه طائر غرّيد في فضاء شاسع. الختيار عاقل. صبور. وهادئ. جملٌ؛ عندما يُستفزّ يصير صعب المراس. عسّاف ناعم. أملس. وتتوهّم أنّه بين يديك، وإذا به ينزلق إلى الجهة الأخرى. نابه متحفز مثل أفعى. كرزم ثعلب متربّص. يضرب ويختفي بسرعة. يجيد التناغم مع بيئته. بو زهرة ضعيف مذعور مثل السحليّة، يخاف كلّ متحرك.

ثمّ توقف هاشم عن الرّسم متسائلاً: وأنا؟ من أنا؟ ليتني أعرف... صار من أصحاب العفش، استبدل برشه بفرشة صوف ولحاف ومخدّة جاءته من البيت. ما ألذّ رائحة الأمّ الكامنة في الشراشف المغسولة.

اختنق بعبرات الحنين.

أحبّك يمّه. دموعي تسحّ حنيناً لدفئك. سامحيني يمّه، وحدك تحتسبين جحودي وفاءً مؤجّلاً، وترين في نقصي كمالاً. وتلهجين باسمي مع تسابيح الفجر.

صار كناش الرفيق مثل عرائض كتبة العرض حال أمام المحاكم، له لاقط ورق، وغطاء جلدي يحفظ رسوماته وأوراق عرض حاله؛ وصار له رفٌّ يضع عليه كتبه. دلّل نفسه فصنع إضاءة خاصّة مكوّنة من أسطوانة كرتون مدلاة بجانب فراشه داخلها لمبة تضيء له كناشه لما ينام السادة.

* * *

الأيّام كفيلة بالألفة والإيلاف. ألفته الدار البيضا، وفسح له التعوّد حضوراً خاصّاً في الفجوة بين خلافات النخبة، وتحالفاتهم المتغيّرة دائماً.

تقبّل السجناء التدخّل الفجّ للمدير الجديد في شؤون حياتهم، ورحّبوا بحضور شهر الصّوم يكسر تكرار عاداتهم، ومواقيت تعوّدهم، وعشق هاشم حزمة شعاع الشمس الصباحيّة تسقط على مخدّته، وحشرجة مكبّر الصّوت تعلن فتح المهاجع، فيطغى ضجيج السجن على صوت محرّكات السيّارات الصّاعدة إلى التلّ.

تعوّد رائحة غليون البشمهندس، ودوائر سيجارة الكنت ينفثها معاليه، وسعلة حشيش وهو يدخن النرجيلة، وطقات مسبحة السيد ملبورو، وسماجة الخادم الطج. وصار يستمع لراديو مونت كارلو

مع سامي ترانزستور، ويختلي مع فيروز في الصباح، ومع أم كلثوم في المساء ملصقاً الراديو الصغير على أذنه، وإن لم يكن هناك رقيب يسمح لدموعه بأن تسحّ دون أن يدري لماذا، لكنّه يستمتع بذلك.

في الصباح يقرأ الصّحف اليوميّة بمعيّة معاليه. وفي الليل يتفرّج على التلفاز تحت مِنية «بو علي» كناري.

* * *

انمحق هلال شهر رمضان، وانتصف شهر أيلول، وصار الليل مطعّماً ببرودة حنونة.

بانتظار إعلان رؤية هلال عيد الفطر الذي يحيّر المسلمين كلّ سنة، ويختلفون عليه دائماً، راح يتصفّح ديوان عشيّات وادي اليابس، فاستوقفته هذه القصيدة التي يعتدّ غلاة الأرادنة بريادتها لشعر التفعيلة.

هلّ الهلال، فمن منكم رأى طيفه
قبيل تقدّم السجّان يوصد كوّة الغرفة
لقد عمّ المساء ولفّعت آفاقنا سدفة
وحيّانا وجومٌ لم يزل يعتادنا من ليلة الوقفة
ومزّق صمتنا قيد تثاءب موقظاً رسفه.

يبدو أنّ المهمّ ليس القراءة، بل إعادة القراءة...

تخيّل هاشم الشاعر عرار منثالاً مع قصيدته ليلة عيد الفطر، يكتب بيده اليسرى من اليمين إلى الشمال، تصوّر عرار أعسرَ مع أنّ أحداً لم يقل عنه ذلك.

بدا عرار للرفيق مثله: أسود العينين، حادَّ النظرات، في مطلع العشرين من العمر، بسيط المظهر، قليل العناية بهندامه، بريء من التكلّف إلى أقصى حد.

هل هذه صورته أم صورتي؟

صوت غرامفون ناءٍ في مكان ما حول تل إربد يطلق صوت أم كلثوم:

حديث الروح للأرواح يسري.
وتدركه القلوب بلا عناء.
هتفت به فطار بلا جناح.
وشق أنينه صدر الفضاء.

هل هو صوت غرامفون من زمن عرار، أم راديو ترانزستور يحمله حارس ضجر؟

أنا على قمّة تلّ إربد سجين، وعرار الذي سُجن هنا قبل خمسين عاماً على السفح رفات.

يا أردنيات إن أَوديت مغترباً

فانسجنها بأبي أنتنّ أكفاني
وقلن للصحب واروا بعض أعظمه
في تلّ إربد، أو في سفح شيحان.

داهمته موجة سوداويّة من الأسى الكرّار التي تلمّ به وبغيره من السجناء بمبرّر أحياناً، وبلا مبرّر أغلب الأحيان.

بكى بلا سبب واضح. قام إلى بنطاله المعلّق على مسمار فوق رأسه. نبش جيوبه، أخرج ورقة الاستنكار. قرأها.

أستنكر: الإذاعات العربيّة تغصّ ببيانات الشجب والاستنكار.

أعلن ولائي: لم يفكّر بـ... ولا سمع أحداً من الرفاق يتعرّض للملك والنظام.

برنامج الحزب: نحو حكم وطني متحرّر.

الحكومة الرشيدة: كلّ إدارة، حتى إدارة السجن تدّعي أنها أرشد من التي قبلها.

أستنكر، أعلن ولائي. الحكومة الرشيدة. كلمات لا معنى لها.

هي شعرة بين أن يسمّي إعلان الاستنكار جرأة، وتوقاً للحريّة، أو أن يعتبره خسّة، وانهياراً، وضعفاً.

أنا من يقرّر ذلك وليس الحزب، ولا المخابرات، وليس الأصدقاء، ولا الخصوم. فيمَ كلّ هذا العناء؟ سأستنكر، وأوالي، وأقرّ لحكومتنا بالرشاد.

لكنّه عندما قرّر ذلك رأى نفسه مثل حيوان السيرك الذي يخرج من ساحة الخيمة المسيّجة، ليدخل في قفص ثقيل يرافقه أينما ارتحل.

دسّ ورقة الاستنكار بين أوراقه. وظلّ يتقلّب على شوك التردّد حتى الصّباح.

أسلّمها لهم؟ لا أسلّمها.

أستسلم؟ لا أستسلم.

* * *

أنا الراوي هاشم غرايبة، كنت أقلّب أوراق كُنّاشٍ مُصْفرّة كتبتها في سجن إربد (دار السرايا) قبل أربعين عاماً، فطارت من بينها زهرة ياسمين مثل فراشة بلون التبن لتحطّ على كفّي، وتصل روحي بخيط من زهو الشباب، وزمن الإلهام، ودفء الحلم، وقدسية الكرامة الشخصية. فسطع حبر الكوبياء موقظاً الذكريات الغافية في كفّ الزمن.

* * *

تعرّف هاشم إلى الحزب قبل عامٍ ونصف من اعتقاله، فقد لمع نجمه إبّان التضامن مع هبّة الشعب الفلسطيني في آذار 1976، إذ عمّ إضراب عام ومسيرات من الجليل إلى النقب، واندلعت

مواجهات مع العدو الصهيوني أسفرت عن سقوط ستة فلسطينيين وأُصيب واعتُقل المئات... وفي جامعة اليرموك كان ناشطاً في تأسيس اتّحاد طلبة الجامعة الحديثة الولادة 5 . فوجد في الحزب مثقفين يجادلهم في البنيويّة، والوجوديّة، ويختلف معهم في السبيل إلى الوحدة العربية، وتعريف الاشتراكية. وتعرّف إلى مناضلين أجّجوا أحلامه بالحرّية والتحرير والعدالة الاجتماعية. وتعرّف إلى الرفيق موسى، فوضع إصبعه على معنى أن يكون.

هل هذا ما يُسنده في مواجهة سؤال السجن؟ هل هو الشعور بدفء الانتماء لنخبة ألفها؟ أم هي لذّة الاختلاف والمغايرة؟

الأفكار كانت غائمة في ذهنه. لكنّ وهجها وهو يحاول الفهم، هو ما يدفعه للإصرار على قول لا.

ما هو ذلك السرّ الذي كان يجمع زملاءه الطلاب للتظاهر من أجل...، أو دفاعاً عن...، ويجمع المساجين من حوله اليوم بانبهار متبادل؟

ما هو ذلك الخفيّ المنيع العصيّ الذي يخاف أن يخسره؟

ذاك التوهّج المشعّ من احترامه لذاته، وإيمانه العذب بمقترحاته لما ينبغي أن يكون عليه العالم، أم ذلك البريق في العينين عندما يحاجج أقرانه، وهو مؤمن بما يقول؟

ما الذي يعصمه من مغبّة الاستنكار؟ هل هي جرأة امتلاك سلطة ما، ولو كانت مجرّد سلطة حقّهِ في قول لا؟

ما هي الجرأة؟

كتب بقلمه الكوبيا:

ماذا يبقى منّي إذا سُلبت الحق بقول لا.
الحرّية هي أن يكون لنا الحق بقول لا...
لا؛ خصبة. نعم؛ سهلة. خانعة. قاحلة.
لا؛ مفتاح الحرية.
لا شيء يهب الجرأة كنسيم الحرّية.

عندما علا أذان الفجر، فاجأته نسمة ياسمين هبّت من داخله. انشرح صدره، نحّى أوراقه جانباً، وقام يشرب ماءً من الزير. شعر شعوراً فريداً بلطافة هذا الفجر من أيلول. تحديداً؛ يوم عيد الفطر، الخميس الأول من شوال الموافق 15 أيلول1977.

جلس في الباحة الصغيرة أمام الغرفة البيضاء غير عابئ ببرد الصباح، وراح يراقب انبلاج الفجر بنهم. انتشى برائحة ترانيم العيد تفور في فضاء المدينة.

الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله.

يرى وجه أمّه يتموّج بين زهر الياسمينة وهي تكنس باب الدار في ضوء الفجر الأبيض.
يسمع خرير ماء. هل قام أبي إلى وضوئه؟
يشمّ رائحة خبز. هل هي أقراص العيد تخبزها أمّي؟
خرير ماء بعيد، وعبق قهوة محمّصة. رائحة خبز طازج، وشذى الياسمين.
في البيت؟
في القرية؟
في المدينة...
هل كانت هناك مدينة وقرية وبيت؟
هل ثمّة ياسمين، وخبز، وقهوة، وماء؟
هل جاء العيد؟
السجن لا يبتلع الناس؛ بل يبتلع طعم الأشياء ونكهتها.

* * *

في العيد يأتي زوّار غير متوقَّعين.

فرح هاشم بثلّة من زملائه في الجامعة يتجرّأون على زيارته... لم يتحدّثوا في السياسة، ولا عن شؤون الجامعة. ثرثروا عن البنات طبعاً. ودسّ واحد منهم ورقة في كمّ الرفيق.

بجانبه على شبك الزيارة كان البشمهندس «الماسورة» ينحني بطوله الفارع ليتحدّث مع زوجته وابنته التي لفتت انتباه الشباب بشعرها الناري المموّج. قال أحد زملائه: هاي البنت شايفها عندنا بالجامعة. ولاحظ هاشم أنّ والدها طلب من أحد الأولاد الذين يخدمون على الشبك أن يحضر ماءً، فجاءه بالماء من عند الطموني. وضعت البنت طاسة الألمنيوم على حافة جدار الشبك القصير الذي يفصل بين الزوّار والمساجين، ولم تشرب...

استأذن الرفيق زوّاره لدقائق، ودخل. أحضر دورق ماء زجاجي، وسكب الماء للمهندس وزوجته وابنته طبعاً، فانفتحت شهيّة الزوّار للماء. دار بالدورق والكاسات الورقية وسقى العطاش.

علّق المهندس مستعرضاً خبرته: هاي الميّ من نبع راحوب. ما فيه أنقى منها بالأردن. في كلّ إربد ما ظلّ غير حاووز التل موصول بنبع راحوب. وباقي أهل إربد يشربوا من ماء بركة الأزرق.

– حضرتك زميلنا الـ...؟

انصاع المهندس لرغبة ابنته، فدعا الرفيق ليسلّم عليها.

– ابنتي مها. دخلت الجامعة هذا العام، وتسمع عنك من زميلاتها وزملائها.

السنفورة رغبت في التعرّف إلى الطالب المشاكس الذي يتحدّث عنه زملاؤها بخوف وإكبار. والمهندس فخور بابنته التي تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة اليرموك، وفرح هاشم بـالسنفورة

النحاسيّة ذات العينين العسليتين الذكيّتين اللتين لا تشبهان أبداً عيني غزالة المها الواسعتين الساذجتين.

جاملها قائلاً:

– أكيد البشمهندس رح يطلع براءة.

هزّت غرّتها جانباً، وقالت:

– حقاً؟

لم يسمعها تتكلم جملة كاملة؛ لكنّ كلماتها المقتضبة رفرفت حوله مثل فراشات ملوّنة.

أطارد فراشاتها الزاهيات.

وأنسى ما قلتُ.

دار الكلام بين الزوّار والمساجين هشّاً مثل العهن المنفوش.

كلانا قال جملاً عفوية.

تعليقاً أو توكيداً لحديث دار حولنا.

لقطت أذني كلمات تناغي الطير في علاه.

كأنّها قالت كلّ شيء.

كأنّي لم أقل شيئاً.

لم أنفش ريشي الملوّن مثلما تفعل الذكور بحضور الإناث.

لم تكن معنيّة بتوكيد حضورها المفطور على البهاء.

لكنّ صوتها انبجس داخلي ينبوع عسل.

انحنت على الشبك، فتدلّى عقيق سنسالها ناعماً مثل تاء التأنيث.

بلا تكلّف جعلتني أتجسّس على أناقتي.

ياه ما أحلى التفكير بها.

لم يكن بيننا موعد للقاء.

لم تلتق عيوننا خلسة عن أمّها وأبيها؛

ولا تبادلنا ابتسامة المجاملة البلهاء.

مجرّد مرحبا.

ووقفتْ بقدّها الممشوق على رمشي.

بلا تبرّج ولا مكياج باعدت صورتها بين رمشي ورمشي.

بلا استئذان استولتْ حركاتها وسكناتها على إيقاع نبضي.

تغادرنا

لا أغادرها.

شعرها الناري.

تضرّج خدّها.

النمش البنّي حول أنفها الشامر عن بسمة دائمة الحضور.
التماعة عينيها.
بهاء قدّها.
طيفها.
موسيقى كلماتها المبعثرة تناغيني.
عطرها يشتّت خطوي إلى حيث لا أدري.
ها هي تسرقني من صخب المكان، وصفير الشرطة، وزحمة المساجين.
بين مدماكين؛ ألحظ زهرة أقحوان صغيرة بحجم عقيق قرطها.
زهرة تلغي تجهّم الجدار العالي.
تطلّ مطمئنة لهامشيتها. واثقة بهامشها.
زهرة أصغر من زرّ قميصها تلغي المكان.
وترسم قميصها المفتون بصدرها على الجدار.
بين المساجين المسرعين والمتمهّلين؛
لا أرى إلّا قامتها البارعة الحضور.
بلا إحساس أنّي نسيت شيئاً.
أجوب الساحة سعيداً بظلّها الوارف يتمدّد داخلي.
ولا أرى إلّا حركة بنطالها وهي تغادر الشبك.
ياه. كم مضى من الوقت أفكر بها؟
لا أدري.
ياه. ما أحلى التفكير بها.
يا لجمال الغروب.
كأنّه فجر جديد.
ما أرقّ هلال العيد يرتسم كخط حاجبها في الأفق.
كأنّي اكتشفت جمال الكون هذا المساء.
كأنّي أرى السماء لأوّل مرّة.
كأنّي أسبح مع الغيم.
كأنّي..
كأنّي أحبّها.

* * *

يمشي وحيداً في باحة السجن.
ياه ما أحلى الإلهام.
يمرّ سامي ترانزستور: مسا الخير يا رفيق.

لا يرغب في أن يحدّث أحداً.

يريد أن يستمتع وحده بهذا المساء العيدي ذي السماء السماويّة. يسترجع طلة ذات الشعر الأحمر، والعينين الباسمتين، والأنف الشامر المحاط بالنمش. يستمتع معها بمشهد تبدّل أشكال الغيوم السابحة إلى الشرق متّجهة إلى السهل الخمري الذي نبتت فيه طفولته. يبتسم لخاطر طريّ: لماذا نتذكّر طفولتنا بحضرة من...

يتلعثم قليلاً: بحضرة من نحبّ؟

ثمّة عصافير بدأت تزقزق وهي تأوي إلى أعشاشها في الجدار العالي.

وحده القطّ يجيد مداهمته في هذه اللحظات الخاصّة. مشى إلى جانبه دون أن يقول شيئاً. لمّا ارتفعت صافرات الشرطة كي يضبّوا المساجين في مهاجعهم، اقتنص اللحظة، وسأل مبتسماً: عجبتك؟

دهش لمداخلته. وبسط كفّه باسماً: ثعلب...

ضرب القطّ كفّه بقوة على الكفّ المبسوطة له، فسقطت الورقة المطويّة من كُمِّه. التقطها هاشم على عجل، وأوى إلى مهجعه في الغرفة البيضاء.

هذا المساء كان فضاء السجن شاسعاً. تُحلّق زهرات الياسمين في فضائه مثل فراشات مرحة. إنّ ما يسندنا حقاً وبقوّة؛ أشياء في غاية الرهافة.

قال الأمير الصغير: الأساسي والمهمّ لا تراه عيون البالغين.

ليلاً حاول التقرّب من المهندس، سأله عن مسار قضيّته، وهل ستحوّل للمحكمة؟ تشاغل الرجل بحشو غليونه، ومتابعة مسلسل بيتون بليس على التلفاز.

كان سامي ترانزستور شغوفاً بتوقع تطوّر أحداث المسلسل، أو المباراة، أو الفلم المعروض على التلفزيون، ونادراً ما تزبط معه، فصار محطّ تندّر السادة.

تغيّرت الاصطفافات والتحالفات في الغرفة البيضا صدفة. حدث ذلك أثناء متابعة فلم «طائر على الطريق» عن شابّة متزوّجة بثريّ عجوز، وتحبّ السائق.

عادة ما تجري المشاحنات والمناكفات هنا حول مباريات كرة القدم. أمّا هذا الفلم فقد أثار حماسة المتفرّجين أكثر من مباراة بين الوحدات والفيصلي.

انحاز المهندس وسامي إلى فردوس عبد الحميد الزوجة التي تحب السائق، وانحاز ملبورو وكناري إلى نظمي حشيش في تشجيعه لفريد شوقي الزوج الثريّ الجلف. وظلّ معاليه على الحياد.

تلطّف المهندس، وقال:

– الرفيق مع الزوجة طبعاً؟

ضحك هاشم، وقال:

– أنا مع السائق.

علّق كناري هازئاً:

– طبعاً. شيوعي. نصير الشفيريّة والشراميط.

حاصله، انقسموا إلى فريقين؛ ثلاثة ضد ثلاثة.

هاشم سعيدٌ بكونه من فريق البشمهندس لأسباب ورديّة أخرى.

دخول الرفيق في تحالفاتهم أمر طارئ لم يعجب نظمي. فحاول استقطاب معاليه إلى صفّه:

– معاليك ما ترضى بالخيانة الزوجية؟

أطفأ معاليه سيجارة الكنت في منتصفها، وسعل سعلة خفيفة، ولم يقل شيئاً.

يئس حشيش من استقطاب معاليه لفريقه، فقال:

– التنابل ما عندهم غِيرة.

تظاهر معاليه بأنّه لم يسمع، وتابع استمتاعه بالتنبلة. كلّ ما كان يقوم به لإثبات وجوده هو كحّة قصيرة بين الحين والآخر لا مبرّر لها.

لمّا لاحق الزوج امرأته الشابّة ببندقيّته، راح حشيش يحكّ ذقنه، ويهتف: طخّها الخاينة.

الطج حائر. مشاعره مع فريق البشمهندس؛ لكنّه لا يحتمل فكرة مخالفة نظمي. معاليه ظلّ محتفظاً بتنبلته، وسعلته التي لا مبرّر لها. لكنّ هذا الحياد لم يعجب نظمي، فأطلق سيل شتائم على الزوجة، والسائق، والتنابل. وكأنّه يشتم كلّ من لا ينحاز له. شيء ما في أعماق الطج انتفض، فانفلت زمامه فجأة، ونفض جرابه في وجه الوزير: على ايش شامر خشمك وساكت؟ إذا مِشْ عاجبك حكينا؛ نوّرنا برأيك.

احمرّ وجه الوزير، واعتدل في جلسته.

أحسّ الطج بتورّطه؛ لكنّه بدل أن يتراجع رفع صوته بحنق:

– تستنّى رئيس الوزرا يقوم ويقول لك تعال اقعد محلي... منك وورا.

جحظت عينا معالي الوزير دهشة. وفجأة، تناول منفضة السجائر وضرب بها الطج، فأخطأه، ارتطمت المنفضة بالباب، وتناثرت أنصاف سجاير الكنت.

أحسّ الطج بأنّه تجاوز حدّه، راح يلمّ أعقاب السجاير، وهو يتمتم: ما خلص، راحت عليك. حط عنها واستريح.

توتّر الجو. وصمت الجميع صمتاً له حسيس مكبوت.

انكمش الطج على برشه عند العتبة، وكفكف حشيش شفتيه كاتماً ضحكته، لكنّ كناري انفجر مقهقهاً، هأ هأ هأ. تبعه الجميع مقهقهين واحتقن وجه الوزير.

انسحب هاشم منشرح الصّدر إلى كناشه. واستفاد من الجوّ المتوتّر الذي ساد الغرفة، فأضاء لمبته، وأسند الكناش إلى ركبتيه، وفرد الورقة التي كانت في كمّه.

خاص – تقرير إخباري للكوادر المتقدّمة في الحزب.
يلاحظ في السياسة الأمريكيّة أنّ الرئيس كارتر يعتمد النهج الشامل، ويفضّل على وجه التحديد إقامة وطن للفلسطينيين في الضفة الغربيّة وقطاع غزة يكون على ارتباط بالأردن. كما أنه يوافق على عقد مؤتمر جنيف مجدّداً بمشاركة الاتحاد السوفييتي وكلّ أطراف النزاع.
بيغن من جانبه ينفي أن يكون للفلسطينيين أيّة حقوق وطنيّة، ويعتبر أنّ قرار مجلس الأمن 242 لا ينطبق على الضفة الغربيّة وقطاع غزة. ويعارض عقد مؤتمر دولي بمشاركة الاتحاد السوفييتي، وجهود اللوبي الصّهيوني في أمريكا ناشطة من أجل عرقلة خطط كارتر لعقد مؤتمر دولي. وهناك مشكلة في الجانب العربي أيضاً. فالأردن وسوريا يفضّلان تمثيل العرب بوفد موحّد في حال انعقاد مؤتمر جنيف مجدّداً، فيما سادات مصر يفضّل أن تكون هناك وفود منفصلة.
وصول حكومة يمينيّة إلى السلطة في إسرائيل برئاسة مناحيم بيغن في انتخابات مايو/أيّار الماضي وضعت نهاية لثلاثة عقود من سيطرة حزب العمل على الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة. كما أسفر وصول حزب الليكود إلى الحكم في إسرائيل عن تغيير رئيسي في السياسة الخارجية لإسرائيل. حزب العمل براغماتي شغله الشاغل أمن إسرائيل، أمّا الليكود فهو حزب قومي متمسّك بمشروع «أرض إسرائيل». وهو يرفض أيّة مطالب للأردن تتعلّق بالسيادة الأردنيّة في الضفة الغربيّة، كما يرفض أيّ حق للفلسطينيين في تقرير المصير.
الحكومة الإسرائيليّة الجديدة لن تكتفي فقط باحتواء الضفة الغربيّة بل ستنفذ عمليات طرد جماعيّة واسعة للفلسطينيين من الضفة الغربيّة إلى الضفة الشرقيّة. يضاف إلى ذلك أنّ رئيس الوزراء الجديد، مناحيم بيغن، هو زعيم لجماعة إرهابيّة يمينيّة في السابق، وعضو في حكومة الوحدة الوطنيّة برئاسة ليفي أشكول، وصرّح آنذاك بأنّ فلسطين تقع شرق نهر الأردن، وأنّ الشيء الوحيد الذي يحتاج إلى تغيير هو الحكم الملكي لأنّ غالبيّة سكّان الأردن فلسطينيّون.
إذن، المساومة بشأن الضفة باتت خياراً مستبعداً من جانبي إسرائيل والأردن على حدّ سواء.
الخيار الأردني دُفن، وحلّ محلّه الخيار المصري.
أيلول.

تبسّم بعد أن قرأ تقرير الحزب: بيش كيلو الخيار. مع من سأتحدّث بمضمون هذا التقرير؟
أخرج قلادة الخرز التي نسجها له الختيار، وصار يعاينها بعيداً عن أعين الزملاء في الغرفة.
هل أهديها لك يا مها؟ هل تقبلين.
فيما يقلّب القلادة بفرح. اكتشف أنّ الختيار جعل مربّع الصّدر فيها مثل جزدان صغير، مناسب لدسّ رسالة غرام فيه.
مِشْ قليل الختيار.
دسّ تقرير الحزب في الجيب المنمنم، وعلّق قلادة الخرز على مسمار بجانب اللمبة. ونام.
حلم أنّه عصفور على شجرة ياسمين. ثمّ رأى نفسه يقف على سور السجن، يفرد ذراعيه إلى آخر مدى. يمطّ رقبته فتطول ويكسوها الريش. يحرّك ذراعيه كجناحين.
يهتف به القطّ:

– طر! حلّق!
– قدماي ثقيلتان.
– مدَّ ساقيك وارمِ جسمك.
– لا أستطيع.
– تخيّل نفسك تسبح. اسبح يا رفيق.
– سأقع وأتهشّم.
رأى الخفير الذي في البرج العالي يصوّب رشاشه نحوه. اختلّ توازنه. هوى. رفرف.
هتف القطّ:
– طر! حلّق يا رفيق!
حلّق. وسمع صوت صليات الرشاش خلفه. فأفاق مذعوراً، والشرطة يسدّون باب الغرفة البيضا.
كانت حملة تفتيش.
الغرفة البيضا لا تخضع لحملات التفتيش الداخلي التي يشنّها الشرطة فجأة على المهاجع الأخرى. هذه المرّة الغرفة البيضا هي المستهدفة. وبالذات عفش الرفيق. نبشوا الفرشة. فتحوا المخدّة، قلّبوا أوراقه ورسوماته وكتبه صفحة صفحة، نبشوا ملابسه جيباً جيباً، وثنية ثنية. صادروا الكتب والأوراق والرسومات. وفي أثناء ذلك كان ذهنه يعمل بسرعة. يعرف عن ماذا يبحثون، ويعرف أنّ يهوذا كان من الحواريّين المقرّبين.
فيما هم يغادرون زاويته يائسين سحب ضابطهم سلك اللمبة بقوة هاتفاً: هاي ممنوعة كمان.
فلذعته الكهرباء.
– هاهاها.
ضحك الطج، فصفعه رجل الأمن الوقائي، وواصل عمله. مرّوا سريعاً في أطراف الغرفة، فصادروا راديو سامي، وسكّين نظمي، ومغلفات كُنْدُم لم يعترف أحد بملكيتها.
سأل الضابط الشاب مندهشاً:
– لإيش هاي؟
قال الشاويش يونس للضابط وهو يمطّ واحدة منها، ويضحك:
– واقٍ، للنظافة العامّة.
نظر موارية إلى معالي الوزير، وأمال شفته السفلى بخبث، وقال للضابط:
– شو رأيك نقيس على حجم مين فيهم يزبط؟
كانت أوداج معاليه تنتفخ، ووجهه يحمرّ، وتنفّسه يصير شخيراً.
وفجأة صرخ المهندس مذعوراً ملخوماً:

– معالي التنبل؟ معالي الوزير... معاليك.
حمّلوه إلى عيادة السجن. لكنّهم لم يستطيعوا أن يصلوا به إلى المستشفى حيّاً.

* * *

انتظم إيقاع عقارب الساعة، وانتظم طلاب مدارس ظهر التلّ في دوامهم. وتناوب عليه كابوس السرداب. وكابوس المشي على حافة السور. يشتاق للكابوس المتكرّر أيّام الدراسة. كان يرى في المنام أنّه تأخّر على الامتحان، أو أنّ مدّة الامتحان تنقضي دون أن ينهي ما يكتب. يشتاق إلى مقاعد الدراسة في الجامعة. يشتاق إلى صباحات إربد وعبق محامص البنّ، ورائحة مقالي الفلافل، وخلائط دكاكين العطارين.

تبدّل الإحساس بالزمن بعد العيد. فجأة صار الليل طويلاً، وخفت ضجيج السيّارات خلف السجن، واتّسع الوقت لأحلام اليقظة:

الشارع ذاته ولكن ليس كما كان في رمضان، صار الشارع واسعاً، ولم تعد إضاءته وامضة بالأهلّة والقناديل. وكفّ الأولاد عن لعب الدواحل في الحارات.

المشي تحت قمر أيلول منعش، بي رغبة أن أظلّ هائماً بالطرقات حتى مطلع الشمس.

السوق ذات السوق، ولكنه بعد منتصف الليل يبدو مسرحاً لكائنات لا تُرى في زحمة النهار، والعلامات الفارقة بالمدينة تصير مختلفة: بقالة كانت ضائعة في زحمة السوق أجدها متألقة بأضوائها يؤمّها السهارى من سائقي التاكسي، والشرطة المناوبين، والأرقين المقطوعين من الدخان ببيجاماتهم المجعّدة.

في شارع جانبي تقف حافلة البلدية تجمع النفايات من أمام مخبز يجهّز عمّاله العجين لخبز الغد، وفي عمقه تصدح أمّ كلثوم: بقى يقول لي وأنا اقله، وخلصنا الكلام كله.

في الليل تكثر القطط، وعند أحد المنعطفات رجل يرتدي كومة ملابس رثة ينبش في حاوية قمامة، ويعربش لقاياه على عربة مصنعة بما توفر لديه من عجلات وخردة، وفي زقاق هندومة صبيّ يقود درّاجة هوائية بائسة يجمع العلب الفارغة. أصوات السهارى في الليل تختلف عن أصوات المحتفين ببضائعهم في النهار.

بعد منتصف الليل تختفي الأغاني الدارجة، يغيب صخب المجوز والطبل. وتُسمع عن بعد أغانٍ قديمة لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو أبو بكر سالم.

عندما يقترب الفجر تبدأ الشاحنات الكبيرة المسافرة إلى أماكن بعيدة بعبور الشوارع الرئيسية الممنوعة عليها في النهار، ثمّ تمرّ القلّابات والتنكات والجرّافات العاملة في الطرق والمباني، تليها في الظهور الحافلات العاملة على الخطوط الخارجية.

يلمّ الساهرون في شارع الجامعة وشارع العشرين نثار سهراتهم، ويشطف أصحاب المطاعم والمقاهي عتباتهم، فيما يستيقظ وسط المدينة على رائحة الفلافل. ينام شارع العشرين ويستيقظ

شارع الملك طلال.

على تقاطع الطرقات وحول خبز التنّور الساخن يتلاقى السهارى والسكارى وأبناء الليل مع العمّال والفلّاحين والجنود المبكرين إلى عملهم والمعلّمين في المناطق النائية.

تحضر عربة أبو سالم ملك الشاي تفوح حولها رائحة الكاز وهو يعدّ البريموس لغلي الشاي. تظهر بسطة فاروق بائع الكعك والبيض وملحقاتهما. تفوح رائحة الخبز المشروح من مخبز التنّور الذي يزوّد روّاد مطعم ياسين وقاسمية بالخبز الطازج رغيفاً إثر رغيف. تصطفّ الطاولات والكراسي في وسط الشارع، وتنزل صحون الحمّص والفول والمسبّحة، وتتدحرج رؤوس البصل. ومن لا يجد مقعداً يضع صحنه على برميل الماء أو على شوال الفول ويأكل. وعلى ناصية الشارع الغربية تتدحرج السندويشات تباعاً من شبّاك أحمد الفلافل، ويئزّ صوت ماكنة الطيراوي يعصر الفواكه قرب الزاوية الشرقية.

مع أذان الفجر أرى المؤمنين يخرجون بدشاديشهم البيض وحفاياتهم المبللة ذاهبين إلى المساجد. يليهم ظهور عمّال المياومة يحملون قفافهم وفؤوسهم على أكتافهم ويسيرون بهمّة إلى ورشهم، ويثرثرون بصوت مرتفع.

بعد صلاة الفجر يسود المدينة سكون جميل يتيح التأمّل بأفول القمر، ومراقبة غيمات أيلول الرقيقة وهي تعبر الأفق بتشكيلات لا تستقرّ على حال، ويهبّ هواء بارد نظيف.

مع أول خيوط الشمس تضجّ العصافير بنشيدها. يبدأ طائر بالزقزقة ولا تلبث أن تتبعه الجوقة: الحسّون. البلبل. القبّرات. عصافير الدوري. وأخيراً هديل الحمام. تطير الطيور إلى أرزاقها، ثمّ يرتفع ضجيج الحافلات وزوامير باصات المدارس. ويبدأ يوم جديد بكلّ احتمالاته.

ما أجمل الصباح.

يشتاق جرس المدارس، وعاش المليك سامياً مقامه.

يشتاق «جولق» يصيح على الجرائد في شارع السينما: بيروت ولعت. الملك يقوم بزيارة خاطفة إلى عمّان. إعدام البندورة في مزارع الأغوار.

يشتاق الحسبة الممتدّة من الجامع المملوكي غرباً إلى المسجد الكبير شرقاً فيما الخضرجيّة يصيحون: جاي ع التين جاي. من عسل راحوب هالتين جاي. أشقر وملظلظ هالشمّام. من حوّارة الأناناس. بتيري هالبيتنجان. مثل الكوسا يا كوسا. من فوعرا هالكوسا. حمرا وغندورة يا بندورة. مال رحابا هالبندورة.

يشتاق شبيحة سوق البالة ونداءاتهم عند الضحى: هالتنّورة للغندورة. فرّح ولدك بعشر قروش. هاي الشلحة لفلحة.

يشتاق الناس في غدوّهم ورواحهم عبر شوارعها المتقاطعة مثل تقاطعات صينيّة البقلاوة. يشتاق باص الجامعة والقلوب المرشوقة بالسهام على ظهور المقاعد.

يشتاق رابطة الكتّاب في مقرّها المتواضع خلف البريد. يشتاق شعراءها ومناكفاتهم، وكتّابها ونمائمهم، ورسّاميها بلحاهم الشعثاء وشعرهم المنكوش. يشتاق دوّار القيروان، ودوّار البريد، ودوّار الجامعة، والزوايا التي يبيعون عليها اليانصيب، وزواريب الكندرجيّة، ومظلّات كتّاب الاستدعاءات، وبسطات الأرصفة التي يتعثّر بها المشاة.

يشتاق مساءات إربد بغيومها الشفيفة، ولسعة برد الصباح، وغبرة الظهيرة وهي ترتفع زوابع مع ضجيج المدينة إلى ظهر التلّ.

يشتاق قهوة الكمال، وكنافة العفوري، وحمّص الدرزي، وفول ياسين، وتصفّح الكتب والمجلّات عند كشك الزرعيني.

يشتاق مجمع الشيخ خليل: آخر راكب لعمّان. آخر جندي للزرقا. تهيا يا باص تهيا.

يشتاق إربد مع المساء؛ عندما يؤوب وافدو القرى إلى قراهم، يتلاشى صخب المدينة، ويتحلّق الرجال أمام دكاكينهم المشتقة من بيوتهم يدخنون، ويحتسون الشاي بالنعناع.

يشتاق حجارة البيوت السود والبيض وزهور المجنونة الزاهية تتعربشها. يشتاق الريحان والنعنع ونبات السجّادة بألوانه المخملية على شرفاتها. يشتاق زهور الساعة والمدادة تكسو سياجاتها، وشجيرات الياسمين، ومكنسة الجنّة، ومعرّشات الدوالي في مداخل بيوتها، والأقحوان الطالع في مفاصل حجارتها.

يشتاق باعة الكعك والهريسة والترمس وشعر البنات يجوبون الحارات والزواريب.

مثل الباعة الجوّالين يهيم في الطرقات باحثاً عن بيتها كما وصفه البشمهندس متبجّحاً.

ها هو يتنسّم معها عبير الياسمين المسائي، فيما تستسلم إربد لكونها بلدة وادعة.

أشتاق مها. هل أحبّها؟

عندما يتوهّج رأسي بما يفرحني، أتمنّى قلماً من ذهب، وورقاً من حرير لأخطّ عليه كلماتي. لم يكتبوا معلّقاتهم بماء الذهب للمباهاة، كان ذلك تتويجاً لفرحة المبدع بما أبدع. ولم يكن تعليقها على جدار الكعبة إلّا تزيّداً للفرح، وتفضّلاً على الناس.

لكنّ وميض الفرح قصير المدى. ما تعطيك الدنيا إيّاه بيد تعطيك مثله غمّاً ونكداً باليد الأخرى. حتى في السجن يحدث ذلك.

* * *

لكلّ شيء باب، وللشهوات عتبات وأبواب ومفاتيح وحرّاس، وللحمّام باب ومفتاح وحارس. مفتاح باب الحمّام بعهدة بو علي كناري. يشرف على تنظيم الدور، والأولاد الذين ينظفون الحمّام ويشغلون البريموسات.

الحمّام غرفة مستطيلة سقفها عقد بقبّة واحدة، ولها شبّاك واحد بجانب الباب الشرقي، وكوّة واحدة في زاوية الجدار الغربي تحتها موقد نار وفوقه برميل ماء. قام البريموس مقام الحطب الذي كان يوقد في الموقد في سالف الأيّام. جداره الجنوبي مقسومٌ إلى خمس خانات، يرتفع الحاجز ما بين الخانة والأخرى متراً واحداً فقط، كي يبقى المستحمّون تحت الرقابة، اتّقاءً للموبقات، لكن الموبقات مخاتلة تندل مظانّها، وتصطفي أوقاتها. هنا يتعرّف المساجين بعضهم إلى عري بعض، فتنكشف العاهات الخفيّة، والندوب المكسوّة، والوشم المخجل، ومفاتن الجسد المستورة أيضاً.

وما يهمّ عري الجسد في مكان فيه الناس مكشوفو السريرة، أرواحهم مشرّعة الأبواب، مخلّعة النوافذ. هنا لا تعود العادة السريّة سريّة. هنا يتبارى الشباب من يقذف منيه أبعد. وهنا يختار اللوطيّون شركاءهم ولو بالخيال إن عزّ المنال.

بعد انتقاله إلى الدار البيضا استفاد من ميزة السكن مع النخبة، وصار يدخله وحيداً بلا رقابة متمتّعاً بمزايا الخلوة مع جسده. فقد خصّص بو علي كناري يوم الأربعاء بطوله للنخبة.

اليوم ضاق الوقت بسبب ازدحام الغرفة البيضا بنزلاء طارئين راغبين في الاستحمام. دخل هاشم الحمّام بصحبة سامي، واحتلّ ركناً قصيّاً بعيداً عن زميله. غرف الماء الساخن وسكبه على جسده. لاب الصابون على رأسه وغسله. فرك رقبته وصدره. ليّف ظهره بمهارة، ووصل إلى وسط جسمه، أجرى الصّابون بكثافة هناك. تلقائياً انتصب. أغمض عينيه يستحضر صورتها. صورة مها، لكنّ حضورها كان غائماً. قطع عليه خيالاته نداء سامي. سامي لا يرى جيّداً بدون نظّارته، فاضطرّ للاستعانة بهاشم ليناوله الصّابونة التي زمطت من يده وهو يستحمّ. تناول الصّابونة عن الأرض. ووقع بصره على عضو سامي بقلنسوته المدلاة مثل الزائدة الدوديّة. رفعها بطرف الصّابونة. ضحك، وقال:

– عندك دلّاية زيادة.

أمسك سامي الصّابونة، وقال:

– تضحك على حمامتي؟

ضحك سامي. ومدّ يده إلى عضو هاشم:

– وحمامتك مثل ايش؟

– واوا، معنتر.

تلامس جسداهما في إغراء الدفء ونعومة الصّابون، وسرقتهما اللذة للحظات كانت كافية ليداهمهما بو علي كناري...

كان كلاهما عاريين في خانة واحدة من الحمّام، ويضحكان. يا للحرج! يا للعار!

لم ينتبها لرشوته بما يكفي لسكوته إلّا بعد أن صارا في قبضة عطا الله بك، الذي وجد فرصته ليذلّ الرفيق.

أمر بتعرية جذعيهما، ودهنهما بالدبس، وصلبهما على الشبك الداخلي ليتفرّج عليهما المساجين.

ما أقسى الشمس!

ما أبطأ الدودة الترابيّة وهي تدغدغ مسامّ الجلد، وتجتازها حلقة حلقة.

ياه ما أثقل الذبابة.

الفراشات أيضاً هرعت لوليمة الجلد المشاع.

فليذهب الهسهس إلى الجحيم.

اللعنة على الزقرط.

أيّ مسافة قطعت النحلة اللعينة لتنال نصيبها من الأعصاب المشدودة.

الدبابير. النمل الناعم مثل السمسم. اليراعات اللامعة. اليعاسيب بأجنحتها الشراعيّة. الفراشات البائسة بلون التبن. على ماذا كانت تتغذى هذه الكائنات قبل هذه الوليمة.

ما أثقل حبّة العرق وهي تتكوّن وتتدوّر وتتدحرج وتنقط كاوية نهايات الأعصاب.

يبدو أنّه ليس من حقّ أحد أن يفكّر بأنّ الأسوأ قد انقضى. يقشعرّ بدنه من سماجة الحشرات التي تنوش جلده بشراسة، وتقشعرّ روحه من برودة العار. يختنق بألم رسغيه وكاحليه المسلّخة بحبل التعليق. ويغصّ بمرارة الهزيمة. حتى لما ربطوا إبهام رجله بتمرة عضوه، وفكّر بالانهيار لم يشعر بالهزيمة.

سامي يصرخ ويبكي ويسترحم، فيما هاشم يكزّ على أسنانه، يحملق بالسماء، ويشعر بالقهر: ليس أمامه من يتحدّاه وينتصر. ليست هنا فكرة يدافع عنها، أو تنظيم يتستّر عليه. مجرّد سجين ينال عقاباً بسبب حماقة السيد كناري. يشعر بالقهر والخذلان، وتتصاعد في روحه الرغبة في الانتقام لتواسيه قليلاً.

حوله عيون جاحظة بالرعب والشماتة، وخلفه شرطة يدخنون ويثرثرون لمواراة مشاعرهم.

عقوبة مثل هذه كافية لتمويل منامات المساجين بالكوابيس لشهرين قادمين.

عقوبة بهذا الوزن، ترهب المساجين والشرطة على حدٍّ سواء، وتعزّز مكانة عطا الله بيك عند رؤسائه، وتكرّس جبروته على مرؤوسيه.

فكّوهما بعد ساعة. كانت ساعة أطول من يوم ميشع.

هل انقضى الأسوأ؟

يا للخيبة!

لم تكفّ ألسنة المساجين عن تقليب مواجعه، صار مضغة في أفواههم. وصار لكلّ سجين روايته الخاصّة.

احزروا مين السمن، ومين العسل؟

– شيوعي ينطّ ع أمه.

– قال أفندية قال.
صار السجن كلّه عشّ دبابير.
اللعنة.
يشعر بأنّ ما بداخله يشبه زلزالاً من الدموع، غاب شذى الياسمين من ذاكرته. وصار عواء الذئب عويلاً في داخله. صارت الغرفة البيضاء قاتمة موحشة.

لَوْ أَنَّ الفَتَى حَجَر، تَنْبُو الحَوادِثُ عَنْهُ وَهْوَ مَلْمُوم 6 .

لم يكفّ عن تعذيب روحه، وكفّ عن التفكير بمها، وصار يخجل من الخروج إلى شبك الزيارة. أطلق لحيته على سجيّتها فنمت مبعثرة، وبدا شاربه خفيفاً فصار شكله مثل تلاميذ الميلوية.
جافى الحمّام، وغاب الاستحلام عن مناماته، ولم يعد قادراً على ممارسة العادة السريّة.
ذات الجسد الذي كانت تشفي جروحه رشّة ملح صار يتحسّس من كلّ شيء. ولم تلتئم جروح رسغيه وكاحليه السطحيّة بيسر.
كره كناري بكلّ حواسّه، وتجنّبه، وصار يقضي ليله باكياً بصمت.
آه يا وجع العزلة. ألمٌ دائم الوحدة بعيد مطلع الفجر.
ما جدوى الصّمود، والتحدّي، إن كان يمكن أن ينكسر الإنسان في معركة تافهة وغير متوقعة؟ يا للهشاشة.

هل أكل الخروف زهرة الأمير الصغير؟

* * *

هل مرّ يوم أم عشرة؟
التعوّد يقتل الزمن.
يسير وحيداً في الساحة على غير هدى، ولا يتّقي زخات المطر. تسلّل القطّ إلى مساره المحموم حول حوض الماء، ومشى إلى جانبه فلم يعترض. بل بثّ له متوقّعاً أن يقول أو يفعل شيئاً يبدّد غمامة الحزن التي تثقل نفسه. لكنّ القطّ ظلّ صامتاً. لمّا أطلّت الشمس من خلف السور مقنّعة بالغيوم، تناول القطّ مقعدين من مقهى الطموني المغلق بسبب المطر. وسحب هاشم من كمّه إلى زاوية لا يطالها رذاذ المطر، وجلس قبالته.
ابتسم هاشم:
– خير يا طير؟
– يا رفيق...
رفع هاشم حاجبيه. فقد كان يفكّر في مشكلته، وليس به رغبة أن يسمع شيئاً عن سواها. لكنّ القطّ أسند كوعيه إلى ركبتيه، ووضع قبضتيه تحت حنكه، وهمس فيما شعره المصبوغ يدلف ماءً

معتماً حبّة إثر حبّة مثل زيتون اليتامى.

– عندي ثلاث خطط للهرب.

وصمت.

هطل مطر خفيف، فهبطت خصلات شعر الرفيق المبللة على وجهه، أطرق مهموماً وقال:

– ثلاثة أفلام؟

مسح القطّ قطرات المطر عن وجهه وقال:

– هي ثلاث حيل.

هبط حاجبا هاشم، وقال ساخراً:

– حيلة ادعاء المرض والهروب من المستشفى مكشوفة.

– فيه غيرها.

– القبو والسرداب؟

ضحك القطّ:

– أو الهروب من الباب.

– الباب الرئيسي؟ مستحيل.

مسح القطّ حاجبيه بإبهامه وتابع مشيحاً عن عيني الرفيق المشككتين:

– عندي حيلة جديدة... بدنا مغناطيس قوي. والباقي عندي.

قاطعه نداء مكبّر الصوت يدعوه لتسلّم كيس العدّة والذهاب لإصلاح خلل في حمامات إدارة السجن.

---

[1] الوشم ظاهرة منتشرة في السّجون. وهي وسيلة احتجاج صامتة. منذ القدم قام البشر بوشم أنفسهم كطريقة للتضحية جزئياً بأجسادهم، وكأنّ الموشوم الذي يدمي جلده بالشفرة والإبرة يقول: أنا أسيطر على جسدي. أنا قوي!

[2] ذراع الشرطة الضاربة.

[3] مؤتمر جنيف عقد عام 1974 لكنّه عاد ليتصدّر الأخبار لأنّ الرئيس كارتر دعا لإحيائه.

[4] المساجين دون سنّ الثامنة عشرة.

[5] تأسّست جامعة اليرموك في مدينة إربد عام 1976.

[6] القول لتميم بن أبي، شاعر جاهلي مخضرم أدرك الإسلام وأسلم.

الفصل الثالث

كهف الأخيار

قد يُدمّر الإنسان ولكن لا يُهزم. ماذا لو أنّ شيخك يا همنغواي افتُري عليه، وزُوِّرت قصّته، وصار أضحوكة للصيّادين، وهو الذي قهر غطرسة البحر.

القطّ والختيار نجحا في انتشالي من عزلتي. الختيار ظلّ مخلصاً في دفع الألسن عن الرفيق، يُسكت المتنطّعين بنبش مخازيهم.

وواظب القطّ على العناية باختراع قصص مضحكة، وترديد أغانٍ تفرّج الهم حتى تماثلت جروحي للشفاء.

يصطحبني الختيار لشرب الشاي في زاوية الطموني.

يتوقف القطّ عندنا وهو في طريقه إلى الحمّام ليغتسل: رح تشوف كناري يركع عند رجليك، بس طوّل بالك يا رفيق.

ينهره الختيار: أستغفر الله العظيم. انقلع من هون يا قط.

ساعدني التضامن على التصالح مع نفسي، وتصالحت مع سامي، وتوحّدنا للصمود في وجه الشائعات، وصرنا صديقين.

لكنّ تصالحي مع جسدي تأخّر طويلاً.

تغيّرت نظرتي لمن حولي أيضاً: منهم من ارتفع بنظري مثل القطّ والكرزم وعسّاف الذي تصدّى للدفاع عن ابن عمّه، والسيد ملبورو الذي تجاهل الحادثة كلّها، والطج الذي لم يتغيّر سلوكه تجاهي، وإن لم يستطع حفظ لسانه عن البربرة. ومنهم من هبط مثل أبو حديد الذي وجد في الحادثة توكيداً لقناعته بأنّ البشر سفلة بالفطرة.

أمّا نظمي حشيش، فقد نكّد عيشنا ببقبقة شيشته، وبتعليقاته السمجة. بو علي كناري صار يتجنّبنا، ويتظاهر باللامبالاة.

المهندس كان منشغلاً بتشعّبات قضيته الخاصة التي رُفعت للاستئناف.

– أنا بني آدم يا باشمهندس مثلي مثل سامي. سامي انتهت مشكلته لما تخلّص من الأذى الجسدي. لماذا أتعذب كلّ هذا العذاب، وكأني وصيّ على مكارم الأخلاق.

يجترّ الباشمهندس دخان غليونه بصمت. وتغشو مآقيه دمعة حائرة.

يمرّ القطّ ضاحكاً:

– ما بكما؟ ليس لدينا الوقت إلّا لكي نكون سعداء.

أين هي درب السعادة يا سعيد؟

يوماً بعد يوم هدأت الدبابير، والتأمت جروحي، لكنّ طنين مخدّتي لم يهدأ.

قمت إلى لمبتي وكناشي، رسمت فيلاً في بطن أفعى، وخروفاً يرعى أشجار الباو باو. حاولت أن أخرج شجيرة الياسمين إلى الورق فاستعصت عليّ...

حاولت رسم الغرفة البيضا. اكتشفت أنّها لا توحي إلّا بمربّع قاتم.

أستعرض وجوه نزلائها. يا للوحشة. إنّها ملامح ليس لها صدى في داخلي، مجرّد وجوه وأحجام.

لم أنجح في التواصل مع أرواحهم، فكيف أبث الحيويّة في رسومهم. رميت القلم، ورحت أحدّق بأشباح الظلّ والضوء تحت نور القمر.

ساحة السجن في الليل تبدو واسعة وموحشة.

طلع الصباح. مرّت حزمة الشعاع مروراً بطيئاً على النافذة. ناولني حشيش جزءاً من الجريدة على مضض. وأحضر الطج قهوة من عند الطموني. وقلّبت حصّتي من أوراق صحيفة الصّباح بلا تركيز... وانتبهت!

صوت شجار في صحن السجن. أصغي متوجّساً. إنّهم يتشاجرون مردّدين كلمات تبتعد عن الذوق... (أمك يا أخو الشر... عرضك... يا عكروت. ربك. دينك. سماواتك.)

يحقّ لي أن أصفها بأنّها الكلمات الدارجة والمألوفة، ويعرفها حتى الأطفال، لكن لا أحد يعترف بأنّها متداولة وحيّة. بل ويحرّمون كتابتها!

خلال دقائق معدودة سالت دماء، وهُشّمت عظام.

خرجت إلى ساحة الشجار. وكان بو علي كناري واقفاً أمام الحمّام، يتفرج على الطوشة مستمتعاً، وكرشه تهتزّ من الضحك. اهتز ذلك العرق تحت الترقوة، موقظاً الذئب في داخلي. قفزت خفيفاً مثل وشقٍ. عبر ساحة المعركة قاصداً كناري. تعثّرت بعسّاف المبطوح أرضاً. فوقعت فوقه. نهضت على ركبتي وإذا وجهي بمواجهة كرش كناري. لمعت شفرة حلاقة لا أدري من وضعها

بيدي. انتفضت مثل الممسوس. وجرّبت شفرتي في رقبة كناري بضربات حانقة جازمة متتابعة سريعة.

انهار بو علي كناري مثل بعير يشخر.

انتصر فريق وخسر فريق. وتشطبت وجوه ورقاب. وتمزقت ملابس. كان عسّاف ملقى على الأرض ووجهه مغطّى بالدم، وأبو حديد يمسك ركبته بيد، ويبصق أسنانه المهشمة في راحة يده الأخرى. أمّا أنا فكان الدم ينقط من كفّيّ الذاهلتين، وتدلّى ردن قميصي الممزق كاشفاً كتفي اليسرى.

بو علي يشخر مدمى الرقبة والصدر، وجرس السجن يعلن النفير.

خلال دقائق قليلة أُغلقت المهاجع على من فيها، ونُقل جرحى لعيادة السجن، وأُدخل عدد كبير من السجناء إلى القبو. وظهر الأحداث بدلائهم البلاستيكيّة البيضاء ومكانسهم الطويلة يشطفون أرض المعركة.

عادة ما تعبّر الخلافات الدمويّة عن نفسها هنا بالشفرة، إنّه الأسلوب الأكثر شيوعاً. إنّها شفرة الحلاقة الصّغيرة الحادّة. سريعة التأثير. سهلة الإخفاء، المحترفون يخفونها ملتصقة بسقف الحلق. وحروب الشفرات مشروعة في السجون، مثل شرعيّة الوشم الذي ينبري له واشمون مختصّون يخلطون السناج بالصّمغ، ويدقونه بحزمة إبر حتى يستقرّ تحت البشرة في عملية طقسية معقدة تمنح الألم والراحة معاً. كلّ ما يلزم في ختام الحالتين حفنة ملح مباركة تُرشّ على الجروح السطحيّة لتجفيفها، ويتباهى السجين المحترف بهذه الشطوب والندوب مثلما يتباهى بالوشم... فهي رمز السيطرة على الذات، وتنفذ الروح من الشعور بالقهر. لعلها رمز امتلاك مساحة من الحرّية. رمز القوة... لقد نجحت تضحيات أجيال من المساجين في انتزاع هذا الهامش، وتكريس طقوسه في عقد غير مكتوب بين الحاكم والمحكوم.

هل يعرف بو زهرة هذه المعاني؟ أبداً، لكنّه يقول: المعارك تنعش، تردّ الروح.

هذه أول مرّة أستعمل فيها الشفرة. متعة غريبة انتابتني وأنا أضرب لغد كناري والدم ينفر ويطرطشني... هل سأصير ضرّيب شفرات؟

هل أشم ذراعي برأس ذئب أو زهرة ياسمين مثلاً؟

بو زهرة الذي ناولني الشفرة يشهد لي أنّي استعملتها بمهارة محترف. لعلّها مهارة المنتقم، وليست مهارة المحترف يا بو زهرة...

توجد هنا سكاكين للشجار، مصنوعة محلّيّاً من غطاء علبة سردين، أو من ذيل ملعقة يجري طيّها وسنّها على حجر العتبة لأيّام طويلة حتى تصير أداة صالحة للطعن. لو ناولني أحدهم سكيناً لقتلت الرجل. ألهذا الحدّ كنت أحقد على كناري؟! الآن أشعر بالشفقة عليه. رجل كبير مكسور الخاطر. منزوٍ في زاويته. عازف عن تلفازه. يخفي ما ألمّ برقبته بشماغ أحمر كبير.

السِرُّ يكمن في الإدمان. غالبيّة المساجين مدمنون. يدمنون ارتكاب حماقاتهم بشتّى السبل. النشّال مدمن نشل الجيوب ونبشها. واللصّ مدمن السرقة. والمغتصب مدمن اغتصاب. واللوطي مدمن لواط. حتى الأسلوب إدمان؛ أسلوب كلّ فرد في ارتكاب حماقته الخاصة يتكرر مثل بصمته الخاصّة...

هل الإدمان ممتع؟ هل أنا مدمن نكد أول أمس استمتعت بتشطيب كناري. بعدها راقتني فكرة أن أشم ذراعي.

لماذا حضرت فكرة الإدمان وأنا أفكّر بالانتقام.

للانتقام دوافعه الخفيّة والمسكرة مثل الأرتكاريا التي تدفع المقامرين للمراهنة على زمن تحليق ذبابة.

* * *

صدى العراك الذي جرى استدعى تحرّكاً عشائرياً خارج السجن: جاهات، وعطوات 1 ، وأخيراً صك صلح عشائري.

لم أحظ بهذا الكمّ من التعاطف والمؤازرة من أبناء عشيرتي لمّا اعتقلت، لكن بسبب هذه الحادثة زارني شيوخ حكماء يفاخرون بي، ويحذّرون من غدر المغدور، وتردّد عليّ شباب ينفخون حماستهم على شبك الزيارة استعداداً لنصرتي.

لماذا؟

لأنّك قبضاي رفعت راسنا. مش مثل عسّاف منكّس راسنا برّا وجُوّا.

إذن أنا مثل عسّاف في نظر العشيرة. الفرق أنّني معتدٍ. وعسّاف «مغدور».

أبناء العشيرة لا يحبّون أن يقولوا الخاسر أو حتى المعتدى عليه. ابن العشيرة بطل لا يؤخذ إلّا غدراً حتى لو كان عسّاف النصّاب.

هكذا نحن. غُدرنا في حرب... بل غدرونا...

في هذا الجوّ المتوتر الذي أعقب المعركة، ليست لي متعة كالقراءة. عادة أقرأ ما تسمح به إدارة السجن، عفواً إدارة مركز الإصلاح. أقرأ الكتب كأنّما هو عمل عليّ القيام به، أو قدر عليّ الانصياع له. أقرأ بسرعة، لأنّ الإدارة تسحب الكتب التي سبق أن سمحت بها كلّما قامت بحملة تفتيش داخلي. بهذه الطريقة قرأت صحيح البخاري، وتاريخ الجبرتي، ورسائل ابن تيميّة، و«الأم» للشافعي. ومنعوا عنّي كتاب «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم. والاعتراض كان طريفاً: الله خلق إبراهيم مِشْ صنعه. وكادوا يمنعون عنّي رواية «المقامر» لولا أنّ رئيس القلم الجديد استعرض ثقافته مشكوراً، وكتب عليها: مجرّد رواية لا تضرّ ولا تنفع لكاتب روسي غير شيوعي.

المقامرون هنا لا يختلفون عن مقامر دستويفسكي. الشعور بضيق المكان هو الدافع. هل القمار هو سبب المشاكل؟

رغم الجشع الظاهري في ممارسة القمار، فإنّ له شروطه وقوانينه. أمّا الزعامة فلا حدود لجشعها مهما صغر ميدانها.

– أنا مع عسّاف. عسّاف مع أبو حديد. أبو حديد ضدّ «أبو القناني». صديقي القطّ مع «أبو القناني». بو زهرة ناولني الشفرة. كناري ضدّي... فهّمني يا ختيار.

– العراك مثل اللعب؛ ما يخصّ عُمر أو نوعية الناس. أمّا الدم فخطير يا بني، إدمان، مثل السجاير والخمر والحشيشة.

هنا مدمنون يدخّنون حبّ الهال، ويأكلون النمل، أو يشمّون الآغو، أو بخار المجاري ليدوخوا، والسكرجية يشربون التوسفين بحجّة علاج الكحّة، والسبيرتو يسرقونه من عيادة السجن، أو يقوم «أبو القناني» بتهريب صينيّة هريسة مشرّبة بالخمر بدل القطر فتصير ريحتها مثل الجرابات العفنة. حاصله...

– مين أبو القناني؟ مالوش شهر بالسجن.

ضحك القطّ:

– ردّ حبوس، كان شاويش قاووش لما كان أبو حديد اسمه قرقع، وينام بالممرّ.

– أفهم منين جاب كرزم قضيب الحديد اللي كسّرهم فيه؟

ضحك الختيار:

– هذا القضيب خبّاه أبو القناني عند الكرزم لما طلع من السجن قبل سنتين.

– قضيب الحديد كان مخبّأ عند الكرزم؟

– اعترف عليه صاحبه أبو القناني

– سبعه. فكّرته قبضاي.

ضحك:

– هو كاين حمار مثلك.

غضبت.

– أنت يا الختيار تقول عنّي حمار؟

استدرك الختيار:

– قصدي ذيب.

لم أرغب بسماع المزيد، تركت الختيار، وقمت أمشي في الساحة على غير هدى.

لم تقبلني مخدّتي هذه الليلة. بقيت تسألني: هل أنت حمار؟

لا. ليس الختيار من يقول ذلك بل الناس. الجماهير. الشعب.

السجن يمتحننا دائماً بلا مواربة. ويعرّينا بلا رتوش.

طردت صورة الختيار وفكّرت بمها فلم تحضر. صرت أفكّر بالاستنكار.

تنتصب أمامي الورقة التي نسيتها منذ زمن بدا لي بعيداً جداً، كبرت ورقة الـA4 حتى صارت جداراً مصمتاً يسدّ عليّ باب السجن. أشيح عن الجدار، أتناول قلمي، وأحاول أن أكتب شيئاً. لكنّ مخيّلتي تستحضر اللوحة التي مزّقتها مراراً: حمار. ذئب. قطّ. عصفور. أفعى. عنكبوت... كلّنا محشورون في مكعّب القفص حيث لا مفرّ للذئب، ولا سِلع تختبئ فيه الأفعى.

مَن أنا في هذا القفص؟ شيء من الهوس يملأ كلّ جوانحي تجاه أن أعرف من أكون. من يا ترى يقدر أن يحوّل السديم إلى تماثيل وأنصاب.

الختيار قالها: حمار... أنا حمار.

* * *

ذُبحت خراف كثيرة، وأولم أهلي للجاهة الكريمة، ونجح الصلح العشائري خارج السجن، وعادت المياه إلى مجاريها داخل السجن. وعاد صديقاي من مستشفى الحكومة: كانت ذراع عسّاف معلّقة برقبته، وأبو حديد يحجل متّكئاً على عكّازة.

طبعاً ذهبت هيبتهما، ولم يعودا صالحين للقيادة. تعهّدتهما بالبيض واللبن، وكتبت لهما أوتوغرافات مسلّية على الجبس. (تعيش وتوكل غيرها. الكرزم أصدق إنباءً من العصافير. منيح صار هيك، ما صار غير شي.)

قال عسّاف:

– قبضاي يا ابن العم. لما نطلع من هون سيارتي إلك.

– سيارتك؟

– سيارتي... الفكسة البيضا.

ضحكت ساخراً:

– فوكس ما تنفعني. بدي مرسيدس.

* * *

قلت لأبي حديد مواسياً:

– علقة تفوت ولا حد يموت يا بو حديد.

انهار أبو حديد باكياً:

– أنا معثّر من الله خلقني يا رفيق. يا ريتني متّ لما احترقت أمّي.

وراح ينشج ويروي مأساته:

«تقول أمّي انولدت بيوم قيظ حارّ، ولما انولدت مات أبوي. لا تستغرب. لما بشّرت الداية أبوي: مبروك أجاك ولد. طار من الفرح لخزانة الملابس. هناك في بارودة ورثها عن جدّي، وما استعملها من لما استلمها؛ انفجرت وقتلته. وبعد مرور سنة ونص على وفاة والدي انفجر بريموس

الكاز بأمّي وهي تسخن مي لتحمّمني، احترقت المسكينة واحترقت الدار لكن الجيران أنقذوني. وعشت عند جدّتي لأمّي لكنّها ماتت. بعد هيك أخذني عمّي، وكنت في الصّف الرابع، وبعدها ما رجعت للمدرسة، مِشْ لأنّي كسول أو غبي بس لأنّي يتيم. أخذني عمي لعجلون لأسرح له في قطيع ماعز، لما كبرت طلبت منه يزوّجني بنته. زعل. وطردني... جيت إربد أعمل عتّال في السوق. حتى أجا يومي الأسود. ما كنت أروح لبيوت الناس. كنت أحمّل وأنزّل حمولة شاحنة كاملة لوحدي. ولكن القدر ساقني هذاك اليوم الأغبر لأحمل أثاث بيت. حمّلته من المعرض للشاحنة. لكنّهم طلبوا مني أركب مع الشاحنة لتنزيل الأثاث في بيت، وكانت هناك حرمة. مِشْ عارف ليش كانت وحدها. استفزتني بكثرة طلباتها: لا مِشْ هون. لا هناك. زيحها ع اليمين. حطها بالزاوية. وهي تمسح الطربيزات الجديدة فسحلت 2 . الشهوة عميا. هجمت عليها. شلّخت وجهي. لكن اغتصبتها. حكموني 15 سنة. كانت أول مرّة وآخر مرّة.»

سالت دموعه غزيرة على وجهه.

«المساجين يحلمون بالنسوان أشكال ألوان، وبوضعيات لا تخطر على بال. الهمل يحلموا بالولدان على هواهم. أنا يا رفيق بحياتي ما شفت ست عارية، ولا حلمت فيها إلّا بثياب مشققة...»

وغصّ في بكاء مرير.

في اليوم التالي انتقل أبو حديد إلى سجن عجلون بناءً على طلبه، وحلّ أبو القناني مكان أبو حديد مكانه.

أبو القناني كذّاب من طراز فريد. ليس عبثاً اختار رسم الهدهد وشماً لرمّانة كتفه. يستحي بالكذبة التي تحتمل التصديق. جاملني وادّعى أنّه يحبّ الرسّامين والكتّاب. من باب الرعونة أطلعته على رسوماتي، فتمعّنها وهزّ رأسه بملل، وقال:

– هات اقرا لنا شي من قصصك يا رفيق.

قرأت:

– أفعى تهاجم عصفوراً. العصفور يمسك قشة طويلة بمنقاره. يستعصي العصفورُ على البلع. القشّة سلاح. تطول المعركة بين القشّة والناب. قد ينتصر العصفور.

قال أبو القناني ضاحكاً:

– حبّيت رسماتك وما حبّيت قصّتك. السولافه اللي ما فيها كذبة تهز السامع مش قصّة.

قلت:

– لكن هاي قصّة رمزية مش سولافه، يعني تخيّل القشّة في فم إنسان.

– هؤ هؤ هؤ. إنت تتباهى بالكذب؟ حلو.

– هاي قصّة مش كذبة. فيه فرق.

– القصّة كذبة، لكنّ الناس يصدّقونها، أمّا أنا. حتى لمّا أحكي الصّحيح يروح بسوق الكذب. مشان هيك أحتفظ لنفسي بالصّحيح والسليم، وأبيع للسوق بضاعة معطوبة. أكذب. هؤ هؤ. أنا الرابح.

* * *

بعد تردّد، طاوعتني قدماي على الذهاب إلى شبك الزيارة. كنت أعلم أنّ مها هناك.

بادرتني بالسلام.

رددت التحيّة بمودّة.

قالت بحماسة: شاركت باعتصام في الجامعة.

كان والدها المهندس مشغولاً بالحديث مع أمّها عن اتصالاتها بالمسؤولين. وترك الغزالة تتحدّث مع زميلها.

دار الكلام بيننا بيسر. امتدّ خيط الكلام وتشعّب، السؤال يسحب إجابة، والإجابة تمدّ خيوطاً من الملاحظة والاستفسار. هل صمت المحيطون بنا؟ دورة الكلام تزداد قوّة وحميميّة، فتعزلنا عمّا حولنا. دار فينا شبك الزيارة الكئيب مثل دولاب العيد، وانفتحت قنوات جديدة للفرح، وتقطّع كلّ ما بقي من خيوط الحذر والتحفّظ. لم تعترض أمّها؛ بل رمقتنا بنظرة مجاملة. لم نتوقف عن الكلام رغم صفارة الشاويش يونس معلناً نهاية وقت الزيارة.

زهرة ياسمين واحدة فقط استولت على روحي. وأجّجت اخضرار الشجرة التي في صدري، وشعرت بجذورها تتمدّد في عروقي.

أستعيد كلّ كلمة قالتها. أُبحر في عمق عينيها العسليتين، وأسترجع عقصة شعرها الأحمر المطعّج، وفتحة قميصها الأبيض على الصّدر الناهد، ولون حزامها الأسود اللامع على الخصر المخصور كثيراً. ودرجة الأزرق في الجينز الضيّق. أسترجع كلّ ظلّ ابتسامة، وكلّ هزّة لغرّتها، وكلّ نمشة عند أنفها.

كأنّنا نعرف بعضنا بعضاً من ألف عام.

أدور في باحة السجن مع الدائرين، وأراوح حول مها. لم أشعر بأنّ القطّ يسير بجانبي إلّا لمّا انطلقت صفّارات الشرطة لإغلاق المهاجع.

وضع سعيد القطّ يده على كتفي، فانحنيت قليلاً لتقبّل المجاملة.

قال وعيناه تشعّان ودّاً: هي كمان تحبّك.

ابتسمت رافعاً الوسطى بحركة لا إرادية:

– كيف عرفت؟

ضحك القطّ:

– هسع نبت لك ريش وتقدر تطير يا رفيق.

ونادى مكبّر الصوت على المهندس حمدان حسين عبد الغفور المنان: إفراج!
تردّد وهو يشدّ على يدي، ثمّ استدار إلى حقيبة أشيائه، وناولني ورقة مطوية.
– لمن؟ سألت مرتبكاً.
– اقرأها على مهلك يا هاشم، قال البشمهندس.
قرأت:

لا أدري هل أحبّ هذا الولد أم أكرهه.
لا أدري هل هو خصمي، أم مرآتي؟
حضوره يربكني.
ربّما هو لا يدري ما فعله بالغرفة البيضاء ونزلائها السبعة. بحضوره صرنا موضع مقارنة، أمام أنفسنا وأمام الآخرين؛ فارتقت حواراتنا، وتحضّرت سلوكياتنا. صار للسجن معنى، وللزمن حضور، وللقيم سطوة.
لا أعرف رأيه فينا، لكنّنا في الغرفة البيضاء كنّا أكثر انحطاطاً قبل انضمامه إلينا.
آه يا هاشم. لو تدري؟
ربّما خاصمناك لأنّك كشفتنا أمام أنفسنا.
ربّما كرهنا حضورك، لكنّنا أحببناك رغم أنوفنا.
لعلّ التعوّد هو مصدر البلاهة الإنسانية. مع الزمن ينام الضمير، فلماذا أيقظته يا بنيّ؟
هل أعتذر لك نيابة عنهم؟ هذا لا يكفي. هو ليس اعتذاراً ولا جبناً. واجهناك بنوع من توكيد الذات، ولو بالإصرار على الحماقات.
الإنسان المهزوم يخاف من استحضار قناعاته الوجدانية، ويتستّر بأقنعة مستعارة يخفي وراءها خواءً يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال، ومع الزمن يستمرئ الخذلان، ويغطّيه بتسويغ ما هو عليه الآن.
لمّا كنت في مثل سنّك يا هاشم؛ كنت شيوعياً متحمساً. وفي موسكو حيث درست الهندسة كنت متعصّباً للحزب، وللاتحاد السوفياتي، ولمبادئ السلم والاشتراكية. ولما عدت إلى الأردن استنكرت الحزب، وسرت مع التيّار. وصرت لا أفوّت فرصة للسخرية ممّا كنت فيه. ليس لأنّي ناقد حاذق، بل لأنّ الماضي يلاحقني. ألا ترى أنّ المرتدّين مهما كانت معتقداتهم هم الأشدّ شراسة في معاداة ما ارتدّوا عنه.
مهلاً. مهلاً. لا تظنّ باعترافاتي هذه أنّك هديتني سواء السبيل، وأنّي سأرتدّ ثانية إلى أفكار تخلّيت عنها، وقناعات هجرتها.
ما أريد قوله لك:
إنّ من خان روحه مرّة، لا يستطيع أن يثق بشيء.
لا تخن روحك يا بنيّ.

بوفاة معالي الوزير، والإفراج عن المهندس نقصت هيبة الدار البيضا، وتراجع نفوذ نزلائها لدى الإدارة. فقد صارت محطة للعابرين من أقارب المسؤولين المحليّين الذين يُسجنون في حوادث

طارئة لأيّام معدودة مثل: حادث سير. إطلاق النار في عرس. طوشة عشائريّة. حتى إنّه في بعض الليالي كان يُشتقّ فيها مردوان لينام فيه الضيوف العابرون.

كلّ هذا كان يمرّ، وأنا سابح في ملكوت آخر. بعد رسالة أبيها شعرت بها أكثر قرباً. رسمتها تركض في كروم راحوب، أبتسم لصورتها. أخرجت زهرة ياسمين جافّة من بين أوراقي، وحاورتها: تحبّني. لا تحبّني.

– ولم تحبّني؟

– تحبّني.

– لا تحبّني.

كم يرواغني الياسمين؟

* * *

جاء القطّ متوعّكاً، جلس معي عند قهوة الطموني، فطلبت له كاسة شاي وسيجارة كمال. رفض السيجارة فدخّنتها.

سألت القطّ:

– ما عندك شغل اليوم؟

طلب القطّ من الطموني كشتبان سكّر زيادة، ذوّبه في شايه، وارتشف رشفة طويلة بتلذذ، وقال:

– صاحبك تعبان يا رفيق.

– سلامتك.

– ما قدرت أطير امبارح. كلّ أحلامي صارت كوابيس.

ضحكت:

– يا خسارة. من سيطير فوق إربد ويخبرنا أحوالها؟

– ظهري. ظهري مخلوج يا رفيق.

– هاي كرمة حلّت ظهرك. ههه.

– آخ يا ظهري.

اصطحبت صديقي السجن.

– ظهري يا دكتور.

– تشتكي من شي ثاني؟

– كلّ شي يؤلمني.

– أرجوك يا دكتور تهتم فيه.

– ليش على راسه ريشة، ولا نظّمتوه معكم بالحزب.

– أرجوك إذا صار له مكروه من سيحلم لنا.

ضحك الطبيب:
– يلزم طبيب نفسي يفهم عليكوا.
تأوّه القطّ:
– أرجوك يا دكتور ما أقدر أركِّب حنفيّة.
نظر الطبيب إلى رجل الأمن الوقائي، وقال:
– يمكن دسك لازمه صورة أشعّة.
فتح الرجل ملفّ القطّ، وقال:
– القطّ ما يطلع من هون إلّا إفراج أو ميت.
ثم توجّه له قائلاً:
– هاي ملفّك قدامي. ما نسينا حصوة الكلية يا قطيط.
قال القطّ متمسكناً:
– أرجوك، ما ظلّ عليّ إلّا كم شهر. ما رح أهرب.
ردّ رجل المباحث:
– قِبْ. منك وورا.
قلت لرجل المباحث:
– تتحمّل المسؤوليّة إن صار له شي.
– طز. وزير بحاله مات عندنا، وما صار شي.
خرج القطّ بصحبتي، ودخل سامي ترانزستور.
رفرف القطّ بذراعيه راقصاً في وسط الساحة.
– خدعتني. انت مش مريض.
– خدعتهم. المغناطيس وصل.
– شو دخل المغناطيس بالعيادة؟
– أشتّت تركيزهم عن الباب.
– يا رجل بعد عليك 3 شهور مش محرزة المغامرة.
– اشتاقت لي حبيبتي.
– كرمة؟
– لا. الغجرية.
فرطنا من الضحك.
وقف القطّ على رؤوس أصابعه. وقفت قباله، فردنا ذراعينا. تفتّحت عروتا أنفي على آخرهما. ابتسمنا. نقرنا الأرض بأقدامنا. تمايلنا. تموّجنا. رقصنا بمرح غير عابئين بتجمهر المساجين حولنا،

ولا بتعليقاتهم الساخرة:

– انجنوا.

– شو شاربين؟

– شو شامّين.

– ها ها ها ها ها.

– مجانين.

صفّق القطّ بكفّيه إيقاعاً جميلاً. صفّقت مثله. وصفّق المتفرّجون. ما لبثت الأصوات أن تناغمت، وانتظم الإيقاع. ترت تو. ترت ترت ترتو. انهمر رذاذ ناعم يؤجّج حماسة المحتفين، وانطلق صوت القطّ:

خايف كون عشقتك وحبّيتك
ويكون الهوى رماني ببيتك
ونطير ليليّة نشتاق ليليّة
خبرنا شو صار يا طير العشيّة.

انتقلت عدوى الفرح إلى كلّ زوايا السجن. فارت الساحة بالمساجين. أصيب السجن كلّه بمسٍّ من الجنون. حتّى المآمير الخمسة، والشرطة في الأبراج رقصوا، وعلت الزغاريد في سجن النساء.

انهمر المطر ولم يتَّقِه أحد.

عندما ختمت ماريا ديب بث التلفزيون السوري ببرنامج «غداً نلتقي»، أغلق الطج التلفاز، وأطفأ ضوء الغرفة، فأضأت لمبتي الخاصّة، وكتبت لمها:

زيارتك تحلّ ألف عقدة في حبل روحي، تحوّل الانتظار، وهو رمضاء، إلى حرائق وبساتين.
صرتُ أسير في هذا المكان المسحور وفي عيني نور، وفي قدمي عزم.
ياه. الصّبح قريب وأنت بعيدة. أنتِ قريبة والصّبح بعيد. أنتِ بعيدة والصّبح بعيد.

* * *

رجعت الشتويّة، ورياحها المتقلّبة تُشتّت صوت فيروز الدافئ: رجعت الشتويّة، ضلّ افتكر فيّي.

رجعت الشتويّة وأفرج عن السيد ملبورو، وأعيد للخدمة في وزارة أخرى. وزار السادات الكنيست الإسرائيلي في القدس المحتلة. وعقد بو علي كناري صفقات عقاريّة غير ناجحة، وزحلق في واحدة منها فأقام منافسه دعوى ضدّه، فتأجّل الإفراج عنه لحين بتّها. يبدو أنّ تلك الحادثة لخبطت كيانه. وسيظلّ زقرط السجن يعيّرونه بها كلّما دقّ الكوز بالجرّة.

نُقل عسّاف إلى سجن الزرقاء رغم أنّه لم يبق من محبوسيّته إلّا شهر لأنّه نصب على مدير السجن نفسه.

كتب للنقيب عطا الله تقارير مبالغاً فيها عن وجود ذهب مع المساجين، وهذه حقيقة لكن بشكل قليل ومشروع: خاتم. سنسال. ليرة عصملي.

ثمّ وشوشه أنّ بإمكانه أن يلمّ له الذهب من المساجين بسعر بخس.

– لا يكون مسروق يا عسّاف؟

هنا كشف عسّاف نيّاته لحضرة الضابط. رغرغ حرف الراء، وهمس: «مسروق. منصوب. منهوب. إنت يهمّك تربح. القرش يرمي قرشين بأسبوع زمان».

وباعه كيلو ذهب فالصو 3 !

الضابط لم يجرؤ على فتح قضيّة ومحاكم لعسّاف، وبكلّ ما عنده من صلاحيات استطاع فقط نقله إلى سجن آخر. لكن في السجن كلّ شيء مكشوف... حتى قصّتي مع بنت المهندس صارت مكشوفة.

* * *

زارتني مها!

استأذنتها لدقائق. كتبت لها كلمة واحدة كبيرة بخط النسخ: أحبّك. أودعتها جيب عقد الخرز. وقدّمته لها.

رنّ الجرس منهياً وقت الزيارات. أهدت لي خصلة من زهر البنفسج بحجم الإبهام، وكتاباً باللغة الإنجليزية 4 ، بحجم الكفّ، سحبته من بين دفاتر محاضراتها، لم يلفت انتباه الشرطة. وودّعتني شادّة على يدي بكلتا يديها.

بعد أن أصدر تلفزيون بو علي كناري وشيشه الختامي استللت الكتاب أتصفّحه فغمرني عطرها.

من أجل عينيها قرأته، وأجهدت نفسي في ترجمة ما استعصى عليّ فهمه.

ياه ما أجمل هذا النورس! لو لم أكن أحبّك يا مها لعشقتك لأجل هذا الكتاب.

إنّ أصعب طيران، وأهمّ طيران، وأمتع طيران، هو الطيران إلى عوالم المحبّة واكتشاف معنى الحنان.

ياه كم أحبّك يا مها.

وما أروعك يا ريتشارد باخ.

يكفي أن يفكّر المرء بمكان ما، ويريد أن يكون فيه بكثافة وصدق، حتى تجعله الإرادة حقيقة واقعة.

نمت والكتاب بيدي.

رأيت مها عند ملتقى غيمتين تغتسل في الزبد الحليبي. رقصنا مع غزلان الندى. حلّقنا مع النورس جوناثان. هبطنا في حقل بنفسج.

أفقت وعطر البنفسج ينتشر في روحي مثل معجزة، وصار الكتاب رفيق مخدّتي.

الثلاثاء التالي، حنّ الحديد على حاله، وصار شبك الزيارة مرجاً فسيحاً. وصارت المنسوجات الخرزيّة المدلّاة حولنا متحفاً باهراً.

أعادت لي طوق الخرز في نهاية الزيارة.

أخرجت رسالتها من جيب الطوق، ورحت أتنسّم شميمها، وأعيد قراءتها بفرحٍ عسلي العينين:

طيفك نشب في ذاكرتي من أثر الزيارة الأولى، تسلّل معي في دروب إربد، وذهب معي إلى مسطّحٍ أخضر في جامعة اليرموك.

اشتريت سندويش فلافل وكاسة شاي. طلبت من عامل الكافتيريا أن يسكبها في الكأس الورقية التي احتفظت بها من شبك الزيارة، وجلست تحت شجرة التين، مقابل شلال الماء الصناعي حيث قلت لي إنّك كنت تجلس. لم أجد من ملامحك في مخيّلتي سوى سنّك المائلة قليلاً إلى الخلف، وحبّ الشباب الذي يطفو على وجهك بغزارة، ومع ذلك صارحت نفسي بلا مواربة أنّني أرغب في زيارتك مرّة أخرى، واقترحت على نفسي أن أحمل لك الزهرة التي أحبّها.

حاورتك في مخيّلتي، تخيّلت الطريقة التي ستبوح لي بها بحبّك، وأحضّر الردّ، والابتسامة، وهزّة الغرّة أيضاً.

تدفّق حضورك في روحي مثل ماء النبع يروي ويروي.

مثل ظلال شجرة التين المكتظة بالرغبة.

كالشلّال الذي يشبه الشوق.

الثلاثاء التالي كتبت لها:

حبيبتي مها

استيقظت الساعة الخامسة والنصف. الضوء يجلّل الكون، ويعطي ساحة السجن مسحةً من بهائه.

صديقي العصفور ينقر شيئاً ما خلف الشبّاك الشرقي. عصافير السجن متشابهة كأيّامه. لست أدري أهو عصفور بعينه أم هناك تبادل مواقع بينه وبين عصافير أخرى. لكنّي أرى دائماً عصفوراً واحداً على نافذتي. زقزق وقفز لمّا انتبهت لحضوره. حمّلته لك مرحباً وابتسامة. كنت سأحدّثه عنك. ضجيج سيّارة عابرة أبعده عن نافذتي. طبعاً لم أرها. النافذة أعلى من الشارع بكثير. إذا مررت من أمام مدرسة حسن كامل الصبّاح فقد ترين العصفور يتقافز على لفّة الأسلاك الشائكة بانتظارك.

الساعة السادسة صباحاً فُتحت المهاجع. يفور المساجين إلى الساحة. تبقى ستّ ساعات لأراك. كيف ستمضي الـ36 دقيقة المقبلة؟

الآن عليّ أن أودع الرسالة في جيب طوق الخرز، ثمّ أستحمّ، وأحلق ذقني، وأتجمّل مستمتعاً بلحظات انتظارك.

أحبّك.

ظلّ العقد يروح ويجيء بيننا كلّ زيارة، يتألق العقد باشتعالاتنا واشتهاءاتنا، ويغصّ بعواطفنا، والنورس جوناثان يرفرف فوقنا مؤجّجاً انثيالات أشواقنا بوعد الحريّة.

أحبّ الياسمين. أحبّ البنفسج. أحبّ الدحنون. أحبّ نبع راحوب. أحبّ اللون الأزرق بلون السماء. أحبّ الأمير الصغير والنورس جوناثان. أحبّ القطّ والختيار. أحبّ كرة القدم وبابلو نيرودا وعزيز نيسين وإميل حبيبي وسلفادور دالي وغويا وجواد سليم وسعدي يوسف وكزانتزاكس وكرايسكي والطاهر وطّار. أحبّ فيروز وأمّي. أحبّ أبي وموسى. أحبّ مارسيل خليفة وفرقة الطريق وعبد الحليم حافظ وابن الرومي والخيّام. أحبّ الغيم والقمر وعرار ووصفي التلّ وجدّي. أحبّ هو شي منه وكاسترو وعبد الناصر وهواري بو مدين وأخي. أحبّ العصافير واليمام وأسراب طيور أبي سعد. أحبّ بودابست والعقبة وحوّارة والإسكندريّة وتونس. أحبّ خالتي أمينة وعمّي سليم ومعلمتي الأولى نادية أبو رحمون وأختي نايفة. أحبّ غوّار وأنتوني كوين ومنى واصف وفرقة الأبا. أحبّ دستويفسكي ووالت ويتمان وهمنغواي وأرسولا أندروز. أحبّ سورة الرحمن ونشيد الأنشاد والمزامير. أحبّ المشي. أحبّ المطر. أحبّ الليل. أحبّ الصّباح. أحبّ الزيت والزيتون والخبز واللبن والخبّيزة. أحبّ تذوّق الأشياء على مهل. وبقدر ذلك كلّه أحبّك أنت يا مها.

سلّمت عليّ كالعادة بيديها الناعمتين.

عقدة إصبعها الوسطى محبّرة وناتئة قليلاً.

قلت:

– مجتهدة.

قالت:

– في الكتابة لك.

ضحكنا.

قالت باعتداد:

– طلعنا مظاهرة ضدّ زيارة السادات للقدس.

صارت مها تبدو أكبر من سنّها.

صمتُّ.

– وسط المدينة، سكّرنا شارع السينما.

وددت لو أكون معها... لأحميها.

– رح يجيك رفاق جدد، دير بالك عليهم.

بدت لي مثل أختي.

– نظّموك الرفاق يا مها؟

قالت بفرح طفولي:

– أنا طلبت ذلك.

شعرت بها بعيدة.

كانت عيناها تضحكان. غامت عيناي. شعرت بأنّ شيئاً ما أثقل صدري.

هذه المرّة فتحت طوق الخرز عن ورقة مختلفة.

خاصّ – تقرير إخباري للكوادر المتقدّمة في الحزب.

في 9 نوفمبر 1977 فجّر السادات مفاجأته أمام البرلمان المصري وقال: أنا على استعداد للوصول إلى آخر الأرض من أجل السلام، وحتى إلى الكنيست نفسه. وبعد عشرة أيّام قام السادات بزيارته للقدس الشريف، وتخلّى عن مؤتمر جنيف والنهج الرامي إلى تحقيق سلام شامل. أحدثت زيارة السادات للقدس فوضى وانقساماً في العالم العربي. بعض القادة العرب أيّد المبادرة، وعارضها آخرون، فيما آثر بعض آخر الانتظار ليرى ما يمكن أن تصبح عليه المواقف.

إنّ العرب لن يستطيعوا استعادة حقوقهم إذا جاءت مساعي تحرير الأراضي العربيّة المحتلة والتوصّل إلى سلام عادل بمبادرة من جانب واحد أو جزئي أو غير ملتزمة بموقف عربي مشترك.

يتحدّث السادات عن كسر الحاجز النفسي الذي كان يشكّل، على حسب قوله، 90% من النزاع العربي الإسرائيلي. وصار السلام يمكن تحقيقه دون انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة... إلّا أنّ السادات لم ينجح في اختراق الحاجز السياسي للسلام، وعلى وجه التحديد رفض حزب الليكود الانسحاب من الضفة الغربيّة. وفي هذا الجانب فشلت زيارة السادات.

حرقت التقرير، ماذا لو تعرّضت مها للملاحقة، أو فُصلت من الجامعة؟ هل أعتبر نفسي مسؤولاً عن أذيّتها؟

أتذكّر قصّة تداولها الرفاق عن رفيق بدوي أراد أن يتزوّج، فاقترحوا عليه فلانة، فقال لهم: اخسوا يا شينين هاذي رفيقة ما تجوز لي.

ضحكت، ثمّ فكّرت في رفاقي الذين يتعرّضون الآن للضرب والشبح والعزلة، من منهم سيصمد، ومن سينجو. غصّ القهر مرّاً يابساً في حلقي.

الجمعة زارني أخي.

– عندما هجم الشرطة الملثمون؛ نجوت.

– أحسن. لو مسكوك شو بدّه يصير بأمّي.

يضحك أخي:

– أمّي تقول؛ طرقتنا عين الحسود، وصرنا من المغضوب عليهم. قلت لها؛ مِشْ أحسن ما نكون من الضالّين يمّه.

ضحكنا.

– شفت مها بالمظاهرة، بنت قد حالها.

أطرقت، ولم أجب.
– شو؟ فكّرت رح تنطّ من الفرح؟
– لسه صغيرة ع المظاهرات.
– ليش؟ أول مرّة طلعنا مظاهرات كنّا أصغر منها.
– بصراحة ما بدّي تنشغل بالسياسة.
– هذه أنانيّة... ثمّ ضحك أخي متابعاً: هذا موقف رجعي.
حاججته:
– لما عرفت إنّو أختك انتسبت للحزب زعلت.
– زعلت لأنّي ما بدّي تصير شيوعية مثلك.
– قصدك حزبية.
ضحك أخي:
– خيّو معك حق. هاي جينات تخلّف موروثة، بدنا زمن لنخلص منها.
عدت من شبك الزيارة مؤرّقاً بالأسئلة.
لا. ليس صحيحاً أنّ من تحت العصي ليس مثل الذي يعدّها. يقشعرّ بدني عندما أتخيّل مسلسل التحقيق الذي اجتزته يتكرّر مع رفاقي. لعل بعضهم يعيشونه الآن.
الألم الحقيقي يتحلّب من الذاكرة، ويكوي الروح بأثرٍ راجع.
هناك كنت غارقاً بالتفاصيل المجهولة لي. لم أكن أعرف ما الخطوة القادمة. لو كنت أعرف كلّ ما مرّ بي مسبقاً، فهل كنت سأصمد؟
الآن أشعر بأنّ الألم الحقيقي يأتي من استرجاع الشريط كاملاً: الشتم، الصفع، الضرب، الفلقة، الفروجة، الشّبح، خيط النايلون، العزلة. ثمّ مرارات السجن ومفاجآته.
بلا فهم محدّد لمشاعري، أخرجت ورقة الاستنكار، قرأتها على مهل كأنّما تخصّ شخصاً غيري.
لن ألوم نفسي لو سلّمتها للمسؤولين وغادرت عشّ المجانين.

* * *

رجعت الشتويّة، ومرّ عيد الأضحى، ومضى عام على وجودي في السجن. كان ذلك منذ زمن يبدو اليوم بعيداً. زمن صارت معه الشوارع والمدارس والجامعة والقرى نائية. قريتي حوّارة تبعد من هنا مسير ساعة على القدمين، وخمس دقائق في السيّارة لكنّها بعيدة. كلّ الأماكن التي كانت أليفة ومألوفة أراها موغلة في البعد، وأتساءل: هل حقاً كنت هناك؟
رجعت الشتويّة، قصر النهار وطال الليل، ودخلت جيبوتي عضواً في الجامعة العربيّة، وفرحت بفوز منظمة العفو الدوليّة بجائزة نوبل للسلام لأنّهم كانوا يرسلون لي بطاقات تضامن تنتهي

بعبارة: Keep your thumb high.

وعرض تلفزيون بو علي كناري الجديد برنامجاً عن وفاة ملك الروك، ألفس برسلي، بجرعة زائدة من المخدّرات، ما أرعب متعاطيها في السجن.

رجعت الشتويّة، وسرت بين المساجين الشائعة الأكثر رواجاً: عفو ملكي قريب. تبييض سجون عند راس السنة الجديدة.

إشاعات العفو العام تذكّرني بقوم يأجوج ومأجوج الذين يلحسون سدّهم الفولاذي بألسنتهم ليل نهار حتى يصير رقيقاً كورقة، ولحظة يتأهّبون للاندفاع خارج السور تعود للسدّ سماكته، ويعاودون لحسه بألسنتهم. لا السدّ ينهار، ولا الألسنة تكفّ عن الثرثرة. عفو. عفو. عفو.

أعرف أنّ إشاعات العفو ليست إلّا رغوة الأماني الدفينة. لكنّي أستعين بهذا الوهم الماكر، وأتعاطاه، ليخفّف مرارة أيّامي.

رجعت الشتويّة، وجاء شهر كانون صريحاً بعدوانيّته: برد قارس ومطر نزق.

هلّت المربعانيّة وغيّر المطر إيقاع ضجيج السيارات الصّاعدة إلى التلّ والهابطة منه.

رجعت الشتوية، وانتعش الياسمين، وزادت الأيّام الماطرة، وصارت طلّة الشمس مرغوبة، وظلّت أمّي تواظب على زيارتي كلّ جمعة.

اليوم الجمعة 13 كانون الثاني 1978 زارتني أمّي. تحدّثنا عن الدار، وشجرة الياسمين، والموسم الزراعي. سألتها عن همّة والدي معها فزجرتني. تنقلتُ معها بين التفاصيل؛ تحدّثتْ عن الأخوال والخالات، الأحفاد والحفيدات.

«أختك خلّفت ولد سمّته على اسمك. تلمع عيناها بفرح طفولي وهي تقول: صاروا سبعة بحوّارة على اسمك.»

لا تتكلّم كثيراً، لكنّها تشدّ أزري بطريقة لذيذة لا تجيدها إلّا الأمّهات: «ما يقطع الراس غير اللي ركّبه».

أتحسّس عقد الخرز في جيبي. أهمّ بأن أخبرها عن مها، لكنّي لم أهتد لصيغة ملائمة.

طابور الرجال أطول من طابور النساء على باب السجن. يصل أبي متأخّراً ومبلّلاً. أجلّ أبي بإخلاص ومودّة. يسلّم باقتضاب لكن بحرارة. نتحدّث عن أحداث العالم، ونتدرّج إلى أحوال العرب، وننتهي إلى سياسة قريتنا.

يشرب أبي شايه بتؤدة متنحّياً قليلاً لأمّي. إنّها تتحسّس وجهي وكتفي وتتفقّد ملابسي. تدّعي دائماً أنّي نحيف، ولا ألبس ما يكفي لمواجهة البرد.

* * *

– آخ يا سنّي.

نمت نوماً متقطعاً. وكلّما غفوت يعاودني ألم الأسنان متناوباً مع الكابوس نفسه.

أرى خيالات رفاقي مستباحة للفلقة والفروجة والشبح فأفرّ مذعوراً لأجد نفسي في القبو أتحسّس الجدار حجراً حجراً بحثاً عن حجر قابل للزحزحة فيقشعرّ جلدي يأساً.

أرى رفاقي يبتسمون لي فرحين بكلبشاتهم. أهبّ لملاقاتهم رافعاً إبهامي، فأصطدم بباب السجن. ثمّ القشعريرة ذاتها أمام الجدار المصمت. فززت من نومي مذعوراً، فشعرت بحبّ السميد يطفر على جلدي.

خلايا جلدي صارت إبراً تأكل نهاري، وتؤرّق ليلي. ولم يعد العصفور جوناثان قادراً على هدهدتي حتى أنام.

فحصني طبيب السجن، ورطن للممرّض: سكيبس 5 !

حاولت إقناع الطبيب بأنّي لا أعاني من الجرب، بل هي الحساسيّة، فزجرني الطبيب بعنجهيّة: حضرتك طبيب؟ تعال اقعد محلّي!

دهنوا جلدي بمحلول الكبريت ذي الرائحة الصّفراء التي تجلب الغمّ، وعُزلت في غرفة منزوية من غرف الإدارة في الطابق الثاني.

شعرت بالعزلة كما لم أستشعرها في الزنزانة، وأزعجتني الحكّة كما لم تؤلمني دبابير يوم الدبس. وفجأة استحوذ ألم الأسنان على آلامي كلّها.

في اليوم التالي صرت غير قادرٍ على تمييز الرّحى التي تؤلمني. كلّ أسناني تلمع ألماً كما لو أنّها موصولة بتيّار كهربائي.

توسّط لي عمّي الباشا ذاته ليسمحوا لي بالذهاب إلى طبيب الأسنان.

أجتاز باب السجن. لأول مرّة أتفحّص البوابات والمساحات والأقفال باهتمام. كأنّما أبحث عن حجرٍ فالت في الجدار.

أخذ طبيب الأسنان احتياطاته من العدوى، وفتح فم مريضه على آخره، وضع ساحبة اللعاب تحت لساني، وراح يكيل الانتقادات للاتحاد السوفييتي الذي لا يناصر العرب ضدّ إسرائيل كما ينبغي، ويكيل الشتائم للشيوعيّة حسب فهمه لها، فيما أنا أفكّر في النورس جوناثان: إنّه ليس شيوعياً، لكنّه مُنع من حق الكلام، وطُرد من القطيع لأنّه اكتشف أنّ الطيران هو الحريّة، وعليه أن يدفع ثمن هذه الخطيئة.

أنهى الطبيب عمله وموعظته معاً، وكتب وصفة ريفانين مع كودايين. حبّتان عند اللزوم. وأوصى بأن يفحصني طبيب جلدية مختصّ. فأخذوني إلى طبيب الجلدية. أخذت ممرّضة الجلدية خزعة من البثور وأرسلتها إلى المختبر.

ليلاً، في محجري الصحّي فوق القاووش الجنوبي، زال أثر البنج.

آخ يا سنّي.

العزلة وألم الأسنان فتحا على سؤال العمر. أشعر بأنّي عشت عمراً طويلاً. تنهدت: الزمن مثل الماء يأخذ شكل المكان. يوم وُلدت كان عمر جدّي قد جاوز المئة. يا إلهي كم أمامي من الآلام...

آخ يا سنّي. تناولت حبتي ريفانين، وشربت ماء...

أفكّر بالمظاهرات، وأقلق على مها، وأتألّم من أجل الرفاق المعتقلين. عندما يكون تفوّقُ الخصم طاغياً وحاسماً فليس أمام الضحيّة إلّا القشّة تحميه من البلع...

عندما كنت أناظر زملائي في الجامعة، كنت أمجّد الصامدين البواسل بحماسة رومانسية، وأصف المستنكرين والمستسلمين بالمتساقطين بلا هوادة. الليلة أجد عذراً لهؤلاء، وهؤلاء. لا أساوي بينهم، لكنّي لا أحتقر الضعف البشري.

أخرجت ورقة الاستنكار، قرأتها على مهل كأنّما تخصّ شخصاً غيري. كعبلتها بلا اكتراث، وقذفت بها إلى سطل القمامة.

هدأ ألم الأسنان. شعرت بضياء مرح ينتشر في صدري. واستلقيت على ظهري أراقب عنكبوتاً تتدلى بخيطها الواهي يهبط على الزاوية.

تمنّيت لو أنقلب عنكبوتاً لساعة واحدة.

لا. لا. ساعة واحدة لا تكفي لاجتياز سور السجن.

تناولت قلمي وكتبت: «ماذا لو صرت عنكبوتاً ليوم واحد».

أكملت قصتي، ونمت بعمق.

صباحاً، زارني القطّ رغم الحظر. فرحت به. وضع كوب الشاي الساخن أمامي واحتضني، تلقفته بود عميق. وشكرته على الشاي اللذيذ.

قال:

– ليس من أجل الشاي جئتك.

مدّ يده إلى جيبه، وأخرج مغناطيساً بحجم قبضة اليد.

– هل تتوقع أني سأستعمله يا سعيد؟

– لقد شرحت لك الخطة، والباقي عليك.

– وانت؟

– لقد أنهيت محكوميتي. سيفرج عني غداً أو بعد غد.

أمسكت كوب الشاي بكلتا يديّ، وسرحت أقلب خطة الهروب.

تركني أحتسي الشاي، وتناول الورقة التي كتبتها قبل أن أنام، وراح يقرأ:

... إذن، عليَّ أن أتسلق الجدار، وأمرّ من بين الأسلاك الشائكة، سأتأرجح قليلاً أمام حامل مفاتيح السجن، أخرج له لساني اللزج شامتاً، وأمضي إلى الجهة الأخرى. ترى كم سرعة العنكبوت؟

هناك عند حافة الجدار سأتدلى بخيطي الواهي.

عامداً سأتدلى على نافذة مدير السجن. سألقي نظرة على ما بداخلها من باب الفضول، ثم أتابع نحو الأسفل. كم ستحتاج عنكبوت لتتدلى مسافة عشرة أمتار مضافا إليها دقيقة تلصص على غرفة المدير وهي تضطرب بسبب هرب سجين؟

الآن سأقطع الشارع. ماذا لو داستني قدم عابر، أو فعسني عجل سيارة مارة؟ إذن علي أن أنتظر حلول الظلام إلى حين تنقطع الحركة.

لا. لا. هذه خطة غير مضمونة.

ماذا لو صرت عنكبوتاً إلى الأبد؟ أي حياة هي حياة العناكب؟ ما هي عاداتها وتقاليدها؟ كيف تكسب العناكب رزقها؟

حتى لو نجحت. هل سأمضي حياتي أصطاد الحشرات؟

حياة العناكب ليست مسلية. أفضّل أن أصير عصفوراً. عصفور يرفرف جناحيه برشاقة ويطير. هكذا أفضل.

أحط على السلك الشائك فوق السور. ألقي نظرة أخيرة على الأسوار، الأسلاك الشائكة، البنادق، المهاجع، الزنازين، المطبخ ذو الرائحة المنفرة. ألوي رقبتي، وأميل رأسي قليلا كما تفعل العصافير، ألقي تحية وداع على أصدقائي المنهمكين في الدوران في باحة السجن، ثم أنطلق.

أرفرف فوق الأسوار، أمرّ من أمام أنف الخفير الواقف خلف رشاشه في برجه العالي. ثم أبتعد مسرعا، وأختفي في زرقة السماء الواسعة.

هاها؟ ماذا لو اختارتني رمية النرد. ماذا ماذا لو وقعت في فخ صبي؟

صياد يصوّب نحوي بندقية رشّ. كيف أنجو؟

ليست لي خبرة العصافير.

في الحقيقة، لا أريد أن أصير عصفوراً. لا أحب أن أكون عنكبوتاً. ولا أرغب أن أنسحب من النافذة كخيط شعاع.

أريد أن أظل إنساناً وحسب.

فقط أريد أن أظل إنساناً عاديا.

عاديا وحرّاً.

ضحك القطّ، وقال:

– قصة جميلة. ذكّرتني بصرصور كافكا يا رفيق.

فتحت فمي دهشة:

– القطّ مثقف منحرف، أم لصّ موهوب؟ شو عرّفك بكافكا يا منحوس. إنت تقرا؟ تطالع كتب؟ يعني إنت...

تنهّد سعيد، هشّ بورقتي على وجهه وقال:

– آن لك يا صديقي أن تعرف سعيد القطّ.

أسند كوعيه إلى ركبتيه، ووضع قبضتيه تحت حنكه، وانطلق صوته بكلام فصيح يتلوه كتلميذ نجيب يردّد محفوظة:

«كنت صغيراً وبريئاً وكانت لي أمّ طيبة ترعاني، وترى نور الكون بعيني. تراني أحلى أترابي. أذكى أخداني. فلقد كنت أحبّ الكلمات. وأغنّيها.

كانت أمي خادمة تجمع كسرات الخبز، وفضل الثوب من بعض بيوت المترفين. وأنا لا همّة لي إلّا في هذا اللغو المأفون. كنت أحبّ الكلمات. صبحي في المدرسة، وظهري بين المكتبات العامّة، ومسائي مع بسطات الكتب. وأعود لأمي بالألفاظ البرّاقة والأوراق. فتدعو لي: الله يصونك يا سعيد. ويمدّ حياتي حتى أراك أستاذاً، أو قاضياً، أو صاحب نعمة.

نفض شعره عن وجهه وقال بأسى: لكنّي صرت حرامي.»

داعبت شعره الناعم وقلت له هذا الكلام يذكرني بصلاح عبد الصبور 6 .

قال وهو يغصّ بدمعته:

– مزبوط يا رفيق. لكن عبد الصبور غلطان. الجوع لا بصنع ثائراً مثل الحلاج. هاي قصتي مِشْ قصة الحلاج. صدّقني يا رفيق. الجوع ممكن يصنع شحّاد أو حرامي. الجوع لا يصنع حلاجاً ولا أستاذاً ولا صاحب نعمة.

ثم ضحك من بين دموعه. وقال وهو يخلخل خصلات شعره الرمادي إلى الخلف:

– أنا اخترت الثانية. السرقة أشرف من الشّحدة. هههه. اجتهاد.

مرضت أمي، قعدت، عجزت، ماتت.

أمي ما ماتت جوعاً. أمي عاشت جوعانة، ولذا مرضت صبحاً، عجزت ظهراً، ماتت قبل الليل.

ثم تنهد دامعاً: ما تركت لي إلّا العرزال وشجرة توت.

* * *

أنقذني تقرير المختبر من العزلة، وأقرّ طبيب السجن بأنّ جلد هاشم يعاني من الحساسية. ولم يصرف لي علاج الفاليوم لأنّه محظور تداوله في السجن.

الانتقال إلى السجن يقتضي المرور من الباب الداخلي. عند التفتيش سألوني عن المغناطيس.

أمضيت نهاري في قلم السجن يسألون لماذا أحمل مغناطيساً في جيبي؟ ويسألون من أحضره لي؟... قلت أنه كان موجوداً في غرفة العزل الصحي، ولا أعرف ما فائدته. ولا لماذا حملته معي. طبعاً لا يعرفون أنّه أداة خطيرة لفك الأقفال، ولن يعرفوا.

تذكرت وصيّة القطّ: «الحيلة مهما كانت ذكية، فإنها لا تنجح إلّا مرة واحدة».

مساءً عدت إلى مخدّتي في الغرفة البيضا، تناولت كتاب النورس جوناثان ليفغنستون من تحت مخدّتي، فتحته، ففاحت منه رائحة الياسمين، صرت أقلّب أوراقه كيفما اتّفق، ونجح العصفور جوناثان في تخفيف الحساسية.

غادر القطيع ليعيش وحده في المرتفعات المشرفة على البحر، واكتشف أنّ الضجر، والخوف، والغضب، التي يسبّبها القطيع تجعل حياة النورس قصيرة. ها هو جوناثان يكبر دون أن يشيخ، وإنّما تزداد طاقته على التحليق بشكل مذهل. ويطير ويطير، وذات مساء، يفاجأ جوناثان بوصول نورسين شفافين أجنحتهما من نور، يأخذانه إلى بلاد النوارس التي تجيد التحليق، لكنّه يكتشف أنّ خلف هذه السماء سماءً أخرى، وخلف معرفته بالطيران معرفة لا تنتهي.

يهتزّ ذلك الوتر تحت الترقوة معرباً عن الشوق لاكتشاف سماء أبعد من رقعة سماء السجن. عن التوق للتحليق، للطيران إلى بلاد النوارس التي تجيد التحليق. وفجأة أصرخ: آخ يا سنّي! تناولت حبتي ريفاكود ونمت.

همس القطّ: اهرب يا رفيق.

عبرت الشبك الخارجي باتجاه الباب الرئيسي. قفز القطّ لينوش الجسر الذي فوق الباب، فلم يصله.

– مدّ يدك فوق يا رفيق.

مددت يدي وعادت خائبة، علا الضجيج في باحة السجن. استعجلني القطّ. عادت يدي تحمل قطعة حديد طويلة، أدخلها سعيد في عروة قفل الباب الخارجي، وعتلها، فانكسر القفل مقرقعاً مع هزيم الرعد. انفتح الباب. يااااه ما أوسع السماء!

لمع البرق كأنّما يشق صدعاً في جدار الأفق. لمحت وجه أمي بين ضفيرتين من زهر الياسمين تفتح ذراعيها. عبرت الباب. السماء ترمي نتفاً من الثلج تتطاير مثل الريش. خفير ملتصق بكوخه الخشبي يطلق صفارته. أتجمّد مذعوراً.

هتف سعيد: طر يا رفيق. اعبر الشارع.

سمعت صوت مها يشجعني: جوناثاااان.

كانت سيارة عسّاف؛ الفكس، البيضاء، الصغيرة بانتظاري. جرس السجن يعلن النّفير. انطلقت زغرودة في سجن النساء. هرع الشرطة من كلّ صوب. لعلع صوت صلية رشّاشٍ.

سمعت صوتي: هيّا. طر. حلّق يا هاشم.

شعرت بندف الثلج كالريش الأبيض يغطّي رأسي. كتفي. فردت ذراعي إلى آخر مدى. أُشرع جسدي لياسمين السماء، يتجلّى وجه مها بكامل نمشه. رفرفرت. صحوت.

فركت عيني. نهضت مرتبكا.

اليوم زيارات. حففت عارضي مرّتين، وأدميت حبّ الشباب، وغيّرت قميصي مرتين بسبب نقط دم تائهة. لسعت بشرتي بالكالونيا، وانشغلت طويلاً بهندامي.

نادى مكبّر الصوت على النزيل سعيد عبد العزيز أبو شوكة الشهير بسعيد القطّ: إفراج بعد مراجعة المحافظ.

لم يشأ أن يودّعني، واكتفيت بالوقوف عند الشبك فيما عناصر الشرطة يجهّزونه لمغادرة السجن.

قارب يوم الثلاثاء على الانتهاء، ولم تأتِ. هل حصل لها مكروه؟

أمام فنجان القهوة الخامس عند زاوية الطموني، شعرت بعبث الانتظار وبأنّ الحساسية توقظ دبابيس روحي، وتهزّني بقشعريرة متوعّدة.

يوقظني من سرحاني صوت سامي ترانزستور: وين سارح، صار لهم ثلاث مرّات ينادون عليك زيارة.

كمشت شتات أفكاري كيفما اتفق، وقمت راكضاً أكاد أتعثر بفرحي.

لم تكن هي، بل هو.

كان الرفيق الذي يدسّ ورقة في كمّه على شبك الزيارة. قال:

– حملة اعتقالات جديدة.

– بسبب المظاهرة؟

– بسبب السادات.

– اللعنة.

– بدّك شي؟ ما رح نتصل فيك الفترة القادمة. تعرف. طوارئ.

– ومها؟

– لقد منعوها من زيارتك.

– مَن؟ أهلها؟

لاذ الرفيق الزائر بصمت رملي المذاق.

– من؟ الجهات الأمنيّة؟

تابع الرفيق الزائر صمته، ثمّ تنهّد قائلاً:

– بل الحزب...

كأنّ الرفيق يستلّ رائحة الياسمين من عروقي.

تمتمت بما قاله أبي عن الحكومة قبل عام: خرا على هيك حزب، وتظاهر رفيقي بأنّه لم يسمع.

انتهى وقت الزيارة.

آه يا قطّ. بودّي لو أستعير صوتك وأصرخ: أوف! أوف! أوف! حتى تتشقّق السماء.

* * *

كان أبي يزورني وقتما يشاء.

فهو يتمتع بوجاهة فطرية، توسّع دربه أينما ذهب، ركب مدير السجن رأسه هذا المساء، ومنع الحجي من الدخول، متمثلاً انزعاج الحكومة من مبادرة الحجي الذي اقتحم جلسة افتتاح المجلس

الوطني الاستشاري، وطرح قضيّة المعتقلين السياسيّين في الأردن، ووزّع مذكّرة بالأسماء والأحكام ومدد التوقيف على وسائل الإعلام.

طلب أبي من أحد أفراد الشرطة، وهم يعرفونه ويحترمونه، أن يوصل كيس برتقال لابنه. تقمص المدير دور حامي حمى الحكومة، وقال بعنجهية: «انتهى وقت الزيارة يا حاج. قلنا ممنوع يعني ممنوع. روح من هون!»

عزّ على والدي أن يُزجر بهذه الطريقة، رمى كيس البرتقال في وجه عطا الله بك: «الله لا يكثر خيرك!» وذهب.

وصل الخبر إلى مسامعي بسرعة البرق، مدعّماً بالتحريض:

«كحش الحجي عن الباب.

كبّ الهديّة ع الدرج.

الحجي حلف ما يزور السجن وعطا الله فيه.

لا تفوّتها لعطا الله النذل.»

ماذا أفعل؟

خرجت إلى باب الشبك الداخلي، وإذا عطا الله يقف بين البابين يرغي ويزبد ويصرخ في الشرطة المناوبين عند الباب الخارجي:

– هاي فوضى، كلّ واحد يجرّ عباته ويجي. بدكم تدللوه!

قاطعته صائحاً من خلف الشبك:

– عطا الله. انت قد الحجي تيجي فيه، إذا إنت زلمة ادخل هون.

فوجئ عطا الله، وارتبك. تدافع المساجين يسحبونني عن الباب الداخلي.

تناقل المساجين الحكاية، وبهّروا موقفي، وقلّلوا من هيبة المدير. وتحدّث الشرطة عن البرتقال الذي تبعثر على باب السجن، وتدحرجت حبّاته على المنحدر. وزيادة في التشويق تداول المساجين حكاية أنّ إحدى الحبّات راوغت المارّة، ونجت من عجلات السيّارات، وقطعت شارع الهاشمي بأمان، وظلّت تركض إلى أن توقفت أمام الجامع الكبير عند الخضرجي الذي باعها.

مضى اليوم ولم يدخل عطا الله ساحة السجن.

المدير لا يدخل السجن يومياً، وقد تمضي أسابيع لا يراه أحد من المساجين. ولكن ما إن أوى المساجين إلى مهاجعهم، حتى بدأ الهمس: المدير خاف من الرفيق وما دخل السجن اليوم.

مضى اليوم الثاني، وارتفع اللغط: عطا الله جبان. وصل اللغط إلى مسمع المدير، وشعرت أنا بالحرج، إذا دخل المدير فهي استجابة متأخرة وساذجة لتحدّي سجين لا حول له ولا قوة، وأنا محرج لأنّه إذا دخل المدير ساحة السجن فماذا بإمكاني أن أفعل.

ضحى اليوم الخامس دخل عطا الله بصحبة لجنة صحيّة تزور السجن دورياً.

كنت أذرع الساحة بخطى سريعة كما يفعل كلّ المساجين في كلّ الدنيا. تواثب الزقرط حولي:

– هيّو دخل.

– روح له ابن الـ..

– اكحشه زي ما كحش الحجي.

جلست عند الطموني وطلبت كاسة شاي، لعلّها تخلّصني من الإحراج. دخل المدير لتفقد المطبخ مع اللجنة، فتنفست الصعداء. بعد قليل توجّهت اللجنة إلى قهوة الطموني، والمدير في إثرهم، توتّرت، لمع العرق تحت الترقوة. استيقظ الياسمين في روحي. وقفت هاتفاً: إلك عين تجي هون يا عطا الله الطز.

تراجعت اللجنة. ارتبك المدير، واصفرّ وجهه... التفّ بعض المساجين حولي، وناولني أحدهم عصاً قصيرة. إناء الخوف تهشّم داخلي ساكباً عصير الجرأة في عروقي. رفعت العصا وهجمت. ولّى المدير هارباً باتّجاه الباب... لم أدر بالضبط كيف حدث ذلك، لكنّي رأيت العصا تنقذف في إثر المدير وتسمطه في أسفل ظهره. تعثّر عطا الله وكاد يسقط لولا أنّ الشرطة أسندوه، وخرج. قُرع جرس السجن. أُعلن النفير.

رفعني الكرزم على كتفيه، وتجمّع المساجين حولي يغنّون:

عريسنا شيخ الشباب شيخ الشباب عريسنا
وتلولحي يا دالية يم غصون العالية
تلولحي عرضين وطول تلولاحي مقدر اطول.
دي دي دي

حرس الأبراج تركوا رشاشاتهم، واصطفوا على السور يلوّحون لي باسمين.

لحظتها رأيت السجن كله غابة ياسمين. وشعرت الآن أكثر من أيّ وقت مضى بأنّني أستطيع الطيران.

اقتادني المآمير إلى القبو كمن يزفّون عريساً. تكشّف للجميع أنّ عطا الله مكروه من الشرطة، أكثر ممّا هو مكروه من المساجين.

بعد أن أخذوا مني المغناطيس، صرت أفكر بتفحّص السرداب.

أزحت الطوب وزحفت كما وصف لي القطّ، وفجأة أعتم السرداب وضاق ثم استدقّ حتى لم يعد يتّسع إلّا لذراعي. مددتها إلى آخرها فلم تصطدم بمغلق. قرّرت أن أوسع الكوّة، وبدأت أزيح الأتربة بحماسة. امتلأ صدري بالغبار. وصار تنفّسي ثقيلاً. تمدّدت ساكناً، وغمرتني سعادة نديّة.

هل سأموت وحيداً في عتمة السرداب، بعيداً عن السجن وضجيجه، وعن المدينة وضوضائها، وعن الحكومة وأساليبها؟

أحسست بالتراب الذي نبشته يتسرّب من تحت قبضتي. انتفضت، تنفّست هواءً عطناً قادماً من باطن التل. تتبّعت حركة التراب، فانكشف التراب عن روزنا بوسع طبق، لملمت التراب من حولي ودفعته إليها وهي تبتلع. وددت لو أحصل على قنديل لأرى ما في هذه الهوة التي انفتحت فجأة في أقصى السرداب. هل تفضي إلى الحرّية، أم إلى ظلمات هذا التلّ المكتظ بأسراره؟

إن كان جوناثان اكتشف سماءً خلف هذه السماء، فربّما أكتشف أرضاً تحت هذه الأرض.

فكّرت: هل ستخرج من وكرك قاصداً المدينة هكذا؟ أنت أيها الهارب. من تظنّ نفسك؟ أتظنّ أنّك قادر على الفرار، ثمّ الفرار، هكذا إلى الأبد. أيّها الأحمق، سيدورون خلفك من مقهى إلى مقهى، ومن شارع إلى شارع.

توقف انثيال التراب إلى الهوة. نظرت فيها فلم أر إلّا العتمة، ولمعت في العتمة صورة الفتى الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

سرّ ذاك الفتى أنّه غاب وهو في كامل زهوه، وتمام ألقه.

في أوج زهوي؛ لا أبالي إن غيّبني السرداب إلى الأبد.

أفقت على نفسي في المستشفى، وحولي أهلي وشرطة وأطبّاء. عمّي الباشا حضر أيضاً. عبثاً بحثت عيناي عن مها بين المحتشدين حولي.

* * *

في المستشفى أتسلّى بالقراءة...

تلّ إربد الذي تلّله الناس قبل خمسة آلاف عام بارتفاع ستين متراً، وُجدت فيه آثار تعود إلى الحضارة الآدوميّة، ووُجدت آثار إغريقيّة ورومانيّة وإسلاميّة، وأغلب الروايات تعيد أصل البناء الحالي إلى العهد المملوكي، حيث كان يتم فرز قوالب الثلج القادم من جبل حرمون وإعادة تغليف أكبرها، وإرسالها إلى مصر، وظلّ التلّ كلّه قلعة مملوكيّة مسوّرة حتى جاء العثمانيون إلى البلاد.

أعاد العثمانيون بناء دار السرايا في زمن سليمان القانوني وفقاً لمخطّطات سنان باشا المتوفى عام 1580م، وصار رمز سلطتهم في المنطقة، وأكد ذلك الرحالة السويسري بيركهارت الذي مرّ بإربد سنة 1812م. ثمّ حسّنه وبنى طابقه العلوي ودرجه الغربي المصريّون سنة 1833م إبّان حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام. وبعد خروج إبراهيم باشا من بلاد الشام آل البناء إلى الإهمال من جديد.

مرّ به الرحّالة الألماني شوماخر عام 1844م ووصفه: يعلو المدخل الجنوبي قوس ويؤدّي إلى حوش مربّع تحيط به صفوف من العقود بنيت بالحجارة الجيريّة والبازلتيّة، وعند باب الحوش ترتفع عدة أدراج إلى الطابق الثاني. ويأوي إلى هذا البناء المشرف على ما حوله من سهول الرعاة واللصوص والمزارعون أثناء فصل الشتاء... ظلّ كذلك إلى أن وطّد العثمانيون سلطتهم على إربد وجوارها مرة أخرى، فرمّموا البناء ليصير مركزاً للدرك وسجناً منذ عام 1866م حسب النقش الحجري المثبَّت على واجهة البوابة اليوم، والمبنى يتألّف من طابق أرضي فيه ستّ عَقدَات وليوان بين القاووشين الشمالي والجنوبي، وعشر غرفٍ تحيط بالمدخل وتمتدّ

شرقاً، ومستودع كبير، وقبو صغير عند المدخل الشمالي الصغير، وطابق علوي من 14 غرفة مختلفة المساحات. ومساحة كامل البناء 1854 متراً مربّعاً، واستمرّت الدولة الأردنيّة باستعماله سجناً.

همست لنفسي: فهمت عليك يا ختيار؛ في الفترة ما بين اندحار المصريين وعودة العثمانيين جاء أجدادي ليزرعوا أرض حوّارة، فأووا إلى هذا المكان المشرف عليها.

* * *

تقرّر نقلي إلى سجن المحطة في عمّان. ونُقل عطا الله بيك إلى شرطة الحدود. دُكّ القبو بالإسمنت؛ وانطوى التلّ على أسراره. وصار القبو حكاية من الماضي يرويها السجناء للأغرار. وغابت مها عن شبك الزيارة.

نزلاء الدار البيضا يتحدثون عن زميلهم السابق البشمهندس:

– نيّاله، بده يهاجر هو وعياله لأمريكا.

أكّد أخي الخبرية، فالمهندسون يتابع بعضهم أخبار بعض:

– بعد قضيّة الاختلاس صارت الهجرة من مصلحته ومصلحة رؤسائه.

– ومها؟

رفع أخي كتفيه كمن يقرّ بديهية:

– طبعاً سيأخذ أسرته معه.

وفجأة ظهرت مها على شبك الزيارة.

جاءت بكامل ألقها، وشجاعتها.

جاءت مثل ماء راحوب الذي يروي ويروي.

مثل ظلال شجرة تين مكتظة بالرغبة.

كالشلّال الذي يشبه الشوق.

أدخلت ذراعها عبر مربّع القضبان. طوّقت عنقي. وقفت على رؤوس أصابعها. قبّلتني. أمسكت كفّي بكلتا يديها عبر القضبان غير عابئة بمن حولنا:

– راجعة حبيبي. سأزرع لك شتلة ياسمين أينما ذهبت. سأترجم النورس جوناثان للعربية. أكمل تعليمي وأعود. سأكتب لك من هناك. اكتب لي دائماً.

عدت من شبك الزيارة.

«يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً كعاشق خطّ سطراً في الهوى ومحا»، كما قال بشارة خوري.

حبس المطر والبَرَد المساجين في المهاجع، ولم يخرجوا لطابور الخمسات في الساحة، وجرى العدّ النهاري كما الليلي داخل المهاجع، فيما أحزم أمتعتي استعداداً للرحيل إلى عمّان صبيحة اليوم

التالي.

رغم الجو العاصف تجمّع أصدقائي يقيمون «حفل وداع» عند قهوة الطموني.

للمطر في السجن إيقاع شجي يثير الذكريات. لا صوت أجمل من صوت المطر سواء أكان هاطلاً على شق بدوي، أم منسكباً من مزراب بيت طيني، أم ينقر على زجاج نافذة غرفة الصّف، أم يخشخش عبر زهرات الياسمين على باب الدار، أو... ينسكب من مزراب السجن. شقعة المزراب لها شجونها وذكرياتها...

«هل يوجد مزاريب عالية في سجن عمّان؟»

يملأ كرزم إبريق الشاي من المزراب. يوقد الختيار البريموس في زاوية الطموني المعطّلة بسبب المطر. يتجمّع حولنا بضعة أصدقاء يتوحوحون من البرد، ويصطلون النار

أتنهّد متساءلاً:

– سجن المحطة أوسع. فيه قسم خاص بالمعتقلين السياسيين. وفيه ملاعب...

ضحك الختيار وهو يدك البريموس فتتأجّج ناره:

– السجن سجن يا رفيق لو كان بالريفييرا.

يأتي أبو زهرة بقرطاسٍ فيها سكر وشاي ويفرغها في الإبريق.

أفتقد القطّ والشكّيك وعسّاف في هذه اللمة.

يشدّ الختيار حطّته حول عقاله، ويصلّي العصر تحت الرذاذ المرتد عن جدران السجن. يغذّي أبو زهرة النار بما تيسّر من سقط المتاع.

من سجن المخابرات إلى سجن إربد إلى سجن المحطة... وماذا بعد؟

إلى متى أتنقّل من سجن إلى سجن؟

هل أنا شيوعي؟

من أنا؟

هل أنا غير ذلك الطفل الذي يركض بلا هدف عبر مفازات الحرج حتى يتعب، ثم يتعمشق الأغصان بحثاً عن لبن العصافير وحين يرجع بالعصفور يتركه للفضاء الأزرق ثم ينحني للأرض العطشى يزرع الملح منتظراً أن يزهر ياسميناً بلون الفرح؟

من حقّ روحي أن تتمرّد على دبيب الزمن وطقوس الحياة اليوميّة المنذورة لكلّ ما هو ليس أنا. من حقي أن أكون حراً.

مع من سأعدّ خطط هرب جديدة في سجن المحطة؟

كم أحتاج صديقي سعيد القطّ في هذه اللحظة...

يسلّم الختيار يمنة ويسرة منهياً صلاته، وتسحّ قطرات رذاذ المطر فتصنع أنهاراً صغيرة تسيل مع أخاديد وجهه المتغضّن.

سألته:

– ما فكّرت بالهرب يا بو محمد؟

ضحك وقال:

– سيبك من أفلام سعيد القطّ يا رفيق. فيه طريق واحدة لتتحرّر من السجن... إذا صمدت، ولم تنكسر فأنت حرّ.

---

[1] العطوة: إعطاء مهلة أو هدنة لأهل الجاني كي يقدّموا ما يرضي الطرف الآخر بكفالة طرف ثالث، وصولاً إلى الصلح.

[2] انكشفت عورتها.

[3] زائف.

[4] إشارة إلى Jonathan Livingston Seagull طبعة Reader's Digest 1972، والكتاب لم يكن مترجماً عام 1977.

[5] Scabies، مرض الجرب.

[6] إشارة إلى «مأساة الحلاج»، مسرحية شعرية لصلاح عبد الصبور.